
روايات الهلال
كل شئ هادئ فى الميدان الغربى
إريك ماريا ريماك

روايات الهلال
REWAYAT AL-HILAL

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٣٩٥ – نوفمبر ١٩٨١ – المحرم ١٤٠٢
No. 395 — November 1981

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير: الدكتور حسين مؤنس
سكرتير التحرير: موسى عبيد

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى – ١٢ عددا – فى جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى . وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى . وفى سائر أنحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

اسعار البيع للجمهور فى البلاد العربية للاعداد العادية من « روايات الهلال » الشهرية اعتبارا من شهر يناير عام ١٩٧٩ :

بسعر ٢٠ قرشا للقارئ فى مصر

سوريا : ٣٠٠ ق . س « ثلاثمائة قرش سورى »

لبنان : ٢٥٠ ق . ل « مائتان وخمسون قرشا لبنانيا »

الاردن : ٢٥٠ فلسا « مائتان وخمسون فلسا أردنيا »

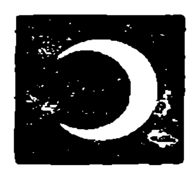
الكويت : ٣٥٠ فلسا « ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتيا »

العراق : ٤٠٠ فلس « اربعمائة فلس عراقى »

السعودية : ٤٫٥ ريال « اربعة ريالات ونصف ريال »

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب – القاهرة .

تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط » .





مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغلاف بريشة الفنانه
سـميحة حسـنين

كل شىء هادئ فى الميدان الغربى



إريك ماريا ريمارك



محمود مسعود

دار الهلال

مقدمة

قد يكون من المستغرب أن يعمد كاتب ألمانى الى تأليف كتاب روائى يجمع فيه بين الواقع والخيال لتصوير أهوال وويلات الحرب العالمية الأولى على نحو مؤثر بالغ التأثير فى الوقت الذى انعقد فيه اجماع شبه عالمى على ان بلاده هى المسئولة عن اضرام الحرب ـ وقد كانت كذلك فى الحرب العالمية الثانية ـ اشباعا للنزعات العدوانية وارضاء لشهوات أباطرتها وغرور قادتها العسكريين . ولكن الغرابة لا تلبث أن تزول اذا مضى الانسان فى قراءة الرواية وأطلع على جوانب الصدق والاخلاص والتجرد فى سرد الأحداث وبيان الدوافع والأسباب واستخلاص النتائج والدلات ، وهى فى النهــاية ادانة دامغة صارخة للحرب ، وحملة شعواء على مشعلى نيرانها ، ودعوة حارة مخلصة للتبصر فى عواقبها المدمرة للغالب والمغلوب على السواء ، ومناشدة للضمير العـــــالمى أن يحتكم الى العقل والمنطق للسعى الى تسوية المنازعات الدولية بالأساليب السلمية دفعا لهذه الويلات التى تكتوى الشعوب قبل الحكومات بلظاها وتدفع ثمنها من حياة أبنائها ودمار مرافقها ورجوعها القهقرى الى عصور الجهالة والظلام . فهى اذن دعوة انسانية محمودة ومطلوبة بقوة حتى وان صدرت من كاتب ينتمى الى الطرف الذى اشتهر بالنزعات العســكرية والروح الحزبية ، ومن ثم كان التقبل التام للفكرة فى ذاتها والاقبال على الرواية اقبالا أدى الى انتشارها بكافة اللغات العالمية واخراجها للسينما فى فيلم كانت مشاهده الرهيبة أعمق أثرا فى نفوس الملايين فى مختلف أرجاء العالم .

والواقع ان المؤلف كان موفقا كل التوفيق فى اختيار أبطال روايته من سبعة شبان لا تجاوز أعمارهم الثامنة عشرة تطوعوا فى الحرب تاركين معاهد العلم متأثرين بتلك الدعاوى الطنانة التى كان الكبار من أساتذة وزعمـــــاء يصبونها فى آذانهم ، حتى اذا أطبقت عليهم

ميادين القتـــال وواجهوا الهلاك مواجهة لا فكاك منها سرعان ما تجلت لهم حقيقة تلك الدعاوى وصح عندهم أنهم كانوا مخدوعين مفررا بهم ولكن بعد أن حصدتهم النيران حصدا ذريعا فى شتى المعـــارك على امتداد جبهات القتـــال طوال أربع سنوات ، وهكذا انهارت آمالهم المشرقة فى العودة بعد الحرب لاستئناف حياة السلم وبناء المستقبل الشبابى الزاهر .

واذا كانت القراءة المطردة للرواية كفيلة بأن تطبع فى النفوس ذلك التأثير الانسانى الذى توخاه المؤلف وهو خلق شعور عالمى قوى ضـد الحرب والدعوة الى استتباب السلم ، فانها الى جانب هذا حافلة بشتى الصور التى تذكى المشاعر وتثير اللواعج ، منها المؤسى الذى يفتت الأكباد ، وفيها المضحك الذى يمتزج بالألم والحسرة .

ثم ان حياة الجندى فى الميدان وهى التى عنى المؤلف بتصويرها تصويرا دقيقا مؤثرا لا تخلو هولها ورهبتها من تلك الومضات الفكرية التى تتناول فلسفة الحيـــــاة حربا وسلما وتحلل النوازع والغرائز البشرية تناولا وتحليلا صادقين نافذتين ، لا بالمفاهيم التقليدية المعهودة ولكن فى ضوء تلك المواجهة الملحمية مع الردى الجاثم فى كل شبر من ميدان القتـــال والتى تتجلى فيها حقائق الوجود خالصة مجردة من كل شوائب الزيف والمداجاة .

وما أجدر أن يتوقف القارىء عند أكثر من صورة من تلك الصور العميقة المغزى ، البعيدة الدلالة التى حفلت بها الرواية والتى عرضها المؤلف على نحو بالغ التأثير لكى يتدبر الناس مراميها ولكى تستقر فى القلوب قبل الافهام آثارها الانسانية الممتدة الى البشرية جمعاء . انظر الى هذه الصورة التى صورها راوى القصة ــ الطالب السابق ــ لذلك التحول الشنيع الذى طرأ على نفسه ونفوس زملائه الطلاب الوادعين المسالمين حين اشتبكوا فى أولى المعـــارك ضد الفرنسيين والانجليز وقد تفتحت أبواب الجحيم بنيرانها الفتـــاكة وظنوا أنهم هالـكون لا محالة : « كنا فى هذا الوقت حيوانات متوحشة . لم نكن نقاتل . بل رحنا ندافع عن أنفسنا أمام الموت الذى يطبق علينا . لم نكن نقذف قنابلنا فى وجوه رجال من البشر . فقد كانوا فى نظرنا وقتئذ رمزا للموت له أيد وخوذات يتعقبنا ويروم حتفنا . لقـد طفت علينا موجة من الوحشية هائلة جعلتنا فى طرفة عين مخلوقات شيطانية وقتلة سفاكين . وكانت هذه الموجة تضاعف قوانا وتزيدنا

خوفا وجنونا وظمأ الى الحياة ، لا نقاتل ولا نبذر الهلاك الا من أجل أنفسنا وصونا لحياتنا . ولو رأى أحدنا أباه فى صفوفهم ما تردد فى قذف قنبلة فى وجهه » .

***

ثم انظر الى تلك الصورة المؤثرة على لسان الراوى وقد وقف بعد نهاية المعركة فى مستشفى الميدان بين عشرات ومئات الجرحى يواسى زميله الطالب الذى بترت ساقه ولكن العملية التى أجريت له لن تدفع عنه الموت الوشيك : « تهدلت شفتاه ، واتسع فمه ، وبرزت أسنانه بيضاء كالجليد ، وذاب لحمه ، وبرزت جبهته وعظام وجنتيه ، وغارت عيناه ، ولن تنقضى ساعة حتى ينتهى ... ما أجدر العالم كله أن يطوف الآن بهذا الفراش ويقول : هذا هو ابن العشرين من عمره ، لا يريد أن يموت ... لينقذه الله » . واذا يلفظ الشاب المنكود أنفاسه الأخيرة لا يجد الراوى ملاذا الا فى خواطره المعذبة : « وجدت فى الظلام والهواء خارج المستشفى مخرجا من أزمتى النفسية ، وأخذت أتنفس ملء رئتى وأتلمس النسيم فى وجهى بحالة لم أعهدها من قبل فى حياتى . راحت صور المروج المزهرة والفتيات الحسان تظهر فجأة فى مخيلتى ، وأحسست بحافز فى قدمى ، فأسرعت فى سيرى وجعلت أركض . كان الجنود يمرون بى فلا أعبأ بهم ، وقصف المدافع يصدر من بعيد فلا أعيره اهتماما . كانت أطرافى تتحرك بنشاط ، وعضلات جسدى تشتد وتقوى ، وأخذت أتنفس من أعماقى بلهف وشغف . كان الليل حافلا بالحياة ، فدبت فى حياته، احسست بجوع أشد من جوع البطن وحدها وهى أهم شيء فى الميدان ... هو الجوع الى الحياة والتلهف عليها » .

***

نعم ... الجوع الى الحياة الآمنة التى انتزعوا منها انتزاعا بدعاوى طنانة . لقد تذكر ما كان يلقنه لهم ناظر المدرسة واضرابه عن وجوب التطوع تلبية لنداء الوطن ، فجاشت خواطره بهذه العبارات : « كنا نثق بهم فى أعماق نفوسنا . كانت فكرة السيطرة والمسئولية التى يمثلونها تقترن فى عقولنا ببعد نظرهم وانفساح شعورهم الانسانى . وسرعان ما انهار هذا الاعتقاد فى أذهاننا حينما رأينا مصرع أول زميل لنا فى الصبا والدراسة . أدركنا ان جيلنا أجدر أن يكون محل الثقة والاعتبار من جيلهم الغابر ، فهم كانوا يفوقوننا

فقط فى البراعة وتنميق الكلام . والواقع ان أول غارة شنها العدو علينا بينت لأعيننا خطأ تفكيرهم البالى ، وبزوال هذا التفكير تداعت أركان العالم الذى صوروه لنا . وفى الوقت الذى كانوا فيه يكتبون ويخطبون ويتكلمون ، كنا نرى من حولنا الجرحى والقتلى يتساقطون كالفراش . وبينما كانوا يلقنون الناس أن تلبية نداء الواجب هى أجل شىء فى الحياة ، كنا ندرك ان سكرات الموت أجل وأفدح ... لكننا رغم هذا لم نكن جبناء ولا متمردين ولا متخلفين عن الصفوف ... نحن نحب وطننا كما يحبونه ... وكنا نواجه الخطوب بقلوب لا تتزعزع ... لكننا أصبحنا نميز الصحيح من الزيف ، وانجابت عن عيوننا الأغشية ، فأصبحنا نرى الحقيقة ، ورأينا أنه لم يبق حجر قائم من عالمهم ، بعد أن أصبحنا فجأة فى وحشة هائلة مروعة ، ولم يبق بد من أن نسير الى النهاية وحدنا » .

***

وهل من عاصم من الموت المحدق بهم فى الميدان والمتربص بهم كل لحظة ؟ يقول راوى القصة فى موقف آخر : « ان ميدان القتال هو بمثابة قفص كبير يحتبس فيه المقاتل ويتوقع كل شىء . فنحن نمكث الساعات فى الخنادق تحت شبكة من القذائف المتقاطعة ونحيا فى قلق دائم . والحظ وحده هو الذى يتراوح ويتذبذب فوق رءوسنا . وكل ما نستطيعه عند سقوطها هو أن نتنحى وننكمش على نفوسنا . فليس فى وسع أحد أن يحدد أين تقع ولا أين يكون مستقرها . وهذا الحظ هو الذى يكسبنا عدم الاكتراث وقلة المبالاة . فمنذ بضعة أشهر جلست فى أحد الخنادق ألعب الورق مع الزملاء فى فترة سكون عابرة ، ثم تركت الخندق وانتقلت الى خندق ثان لزيارة بعض الزملاء ... ولما رجعت الى الخندق الأول لم أجد له أثرا ، بعد أن دمرته القنابل عن آخره . وعندما قصدت بعد ذلك الى الخندق الثانى ، وجدت أصحابه يشقونه من جديد ، فقد ردم فى الفترة التى مضت بين انصرافى وعودتى . فالحظ هو الحد الفاصل بين الحياة والموت . وقد يتمزق الجندى اربا فى خندق مشيد مسلح . وقد يصمد لتدمير عشر ساعات متوالية فى خندق مكشوف دون أن يصاب بأقل سوء ... وربما لا يحالفه الحظ فى كل مرة ... لكننا جميعا نؤمن بالحظ ايمانا أعمى » .

وللذين يشعلون الحروب ويستخفون بأهوال المعارك يزجي راوى القصة هذه الصورة الرهيبة المروعة فى أعقـــاب معركة استعر ضرامها أياما متوالية : « التدمير .. الألغام ... الغازات الخانقة .. الدبابات .. مدافع الماكينات .. القنـــابل اليدوية .. قذائف الطائرات .. قاذفات اللهب ـ هذه كلها مجرد كلمات يمر بها القارىء مرورا ، لـكنها تنطوى فى نظرنا على أبشع الأهوال وأفدح الكوارث .. كانت وجوهنا مغطاة بالأوحال ، وأفكارنا مشردة ، وعقولنا ذاهلة ، وقوانا خائرة ، وأعصابنا محطمة ، وعيوننا ملتهبة ، وأيدينـــا ممزقة ، وركبنا دامية .. لم تستغرق هذه الملاحم المروعة سوى أيام معدودة كانت فى حسابنا بمثابة السنين .. كنا نزدرد القوت ونحن نركض ، ونقذف القنابل ، ونطلق الرصاص ، ونقتل ، ونستلقى على الأرض أعياء أو احتماء .. شاهدنا رجالا أحياء شجت جماجمهم ، وجنودا بلا أقدام يركضون بسيقان مبتورة دامية لاجئين الى أقرب حفرة ... رأينا رجلا يزحف ميلا ونصفا وهو يجر خلفه ركبته المهشمة .. وذهب آخر الى المستشفى وهو يضغط بيديه على أمعائه التى كانت تنزلق من بين أصابعه .. والتقينا برجال بلا أفواه ، ولا فكاك ، ولا وجوه .. وأبصرنا رجلا ممسكا شريان ذراعه بين أسنانه ساعتين كاملتين حتى لا يتدفق دمه ويخر صريعا .. ولا تكاد الشمس تغرب والليل يهبط حتى يبدأ التدمير والمحق من جديد ، أشد عنفا وضراوة، فتزهق أرواح جديدة ، وتمزق الأشلاء أى ممزق » .

***

وماذا عن معنويات الانسان اذا قدرت له النجاة من الموت ولو الى حين ، وأخذ يفكر فى حياة السلم ، أو اذا عاد من الميدان فى اجازة محدودة يقضيها بين أهله ومواطنيه ؟ استمع الى راوى القصة وقد استقر فى أجازته بين أمه المريضة وأخته وأبيه : « جعلت أمى تنظر الى .. كانت يداها بيضاوين أنحلهما المرض ، ولم نتكلم الا قليلا حتى قالت : ولدى العزيز .. فى الحق اننا لم نكن نتبادل العواطف فى هذا البيت ، فان الفقراء أمثالنا ممن يكدون وينهمكون فى مشاغل الحياة لا يتبادلون العواطف .. ولكن هذه العبارة من أمى الطريحة الفراش كان لهـــا من قوة المعنى وعمق التأثير ما لا يقوى غيرها على ابرازه وتصويره .. لقد جلست قرب فراشها أطمئنها على سلامتى متجلدا مموها ما وسعنى التجلد والتمويه .. ومن النافذة

لاحت لى أشجار الكستناء فى حديقة المشرب المواجه للبيت تتوهج بألوان ذهبية داكنة .. فاستنشقت الهواء عميقا وناجيت نفسى : « انت فى بيتك .. انت فى بيتك » .. لكننى أحسست بشعور غريب لا يفارقنى ، ولم أشعر بأننى فى بيتى حقا بين هذه المشاهد .. هذه أمى ، وهذه أختى ، وهذه علبة الفراش الملون التى كنت أعتز بها .. وهذا هو البيانو الذى كنت اعزف عليه .. لكننى لا أشعر بألفة ولا امتزاج فى هذا المحيط .. لست كما كنت من قبل .. هناك الآن فاصل وحجاب بينى وبين هذه المعالم .. كنت أتصور الاجازة على غير هذه الصورة .. لكننى تغيرت تماما .. وانشقت هوة بين عهد السلم وعهد الحرب .. ألفيتنى الآن قد تحطمت وسحقت دون أن أفطن الى ذلك ، ولم أعد أنتمى الى هذا المحيط كما كنت ، بل استحلت الى كائن غريب عن العالم .. فمن الناس من يلقى أسئلة ، ومنهم من لا يسألون .. لكن من السهل أن يفهم الانسان ان هؤلاء مغرورون مزهوون بأنفسهم ، يحسبون أنهم مطلعون على حقائق الامور .. انهم يطرقون موضوعا واحدا لا يتغير ، هو السؤال عن الاحوال فى الميدان ، وهم يسرفون فى بسط آرائهم وتكييف وجهات نظرهم لقهر العدو والزحف الى قلب بلاده مما يثير فى نفسى أشد الضيق والاشمئزاز .. كنت عندما رأيتهم هنا فى بيوتهم ومكاتبهم ومشاغلهم أحس بحافز غلاب يجذبنى الى ناحيتهم فأتوق الى البقاء معهم ونسيان الحرب مثلهم .. لكننى لا ألبس أن أشعر بالنفور ، فتضيق هذه المعالم فى نظرى ، ولا أرى كيف يمكن أن تمتلىء حياة الانسان بهذه الأشياء وكيف يصبر عليها ، وهناك فى الميدان تصفر الشظايا فوق الحفر ويحمل الجرحى على النقالات ويجثم الرجال فى زوايا الخنادق ينتظرون الهلاك .. هؤلاء رجال مختلفون هنا .. انهم رجالا لا أقوى على فهمهم .. هم رجال أحسدهم وأحتقرهم .. وخير لى أن أفكر فى زملاء فصلى فى الدراسة ورفاقى فى الميدان » .

***

وبرغم هذا يحاول صاحبنا جاهدا أن يستعيد ذكريات الماضى السلمى اعلها تدفع عنه هذا اليأس القاتل ، واذا هو يصور لنا هذه الصورة المؤثرة : « لقد جلست فى غرفتى الخاصة بالمنزل فى مقعد جلدى ذى ذراعين وحولى صور كثيرة قصصتها من الصحف والمجلات وألصقتها فوق الجدران .. وفى الناحية المقابلة رفوف

الكتب تتضمن الكتب المدرسية الى جانب المجلدات الأدبية القديمة التى اشتريت بعضها بمالى الخاص واستعرت بعضها الآخر ولم أرده الى أصحابه لفرط اعجابى بها ولهفتى للاحتفاظ بها .. أردت أن أستعيد ذكرى ذلك العهـــــد وان أحس بأن محيط الشباب الماضي لا يزال يشملنى كما كان الحال من قبل .. لم يتغير محيط الغرفة المادى .. غير أننى كنت أتوق الى الشعور بذلك الحافز القوى الذى كان يدفعنى ويجيش فى نفسى كلمـــا عدت الى كتبى ، ويضرم فى نفسى شعلة التطلع الى المستقبل والرغبة فى استباق الزمن وتعجـل ما فى الغد .. جلست وانتظرت .. أردت أن تنطق الغرفة ، وأن أشعر بأننى منها ، وأن تترك فى نفسى من أدلة اليقين ما يجعلنى أثق بأن ذكريات الحرب لا تلبث أن تتوارى من مخيلتى بعد انتهائها ولا يبقى فى ذهنى سوى صور الحياة البيتية مجسمة ناطقة .. جعلت أتطلع الى الكتب وأتوسل اليها بعينى أن تتكلم وأن تضمنى اليها .. انتظرت طويلا .. وراحت الصور والذكريات تتسابق فى ذهنى .. ولكنها كانت أشباحا عارضة سرعان ما تختفى .. ولم يهبط على الاحساس الذى كنت أنتظره .. وشعرت بأننى غريب عن هذا المكان .. ولم أستطع أن أستعيد طريقى اليه .. وألفيتنى مقصيا عنه .. ولما ضاق صدرى نهضت وتناولت كتابا بقصد المطالعة فيه ، ورحت أقلب صحائفه .. لكننى لم ألبث ان ألقيته وتناولت غيره .. ومضيت أقلب الكتب والصحف والمجلات واحدا بعد الآخر دون أن أستقر على واحد أو يستهوينى شىء منها جميعا .. وهكذا نهضت صامتا منقبض الصدر .. لم تتضمن بطون الكتب والمجلات سوى مجرد كلمات أمام نظرى ، ولم تصل الى أعماق نفسى أو تنفذ الى وجدانى .. وأخيرا أعدتهـا الى مكانهـا محزونا قانطا .. وغادرت الغرفة الى غير رجعة » .

***

فما بال أسرى الحـــرب ممن لم يفتك بهم الموت وسـيقوا الى معسكرات الأسر خلف الأسلاك الشائكة على حوافى الميدان ؟ ان حديثهم صورة مؤثرة أخرى لم يفت راوى القصة أن يعرض لهـا فى موكب الحياة والموت الحافل بشتى الصور الانسانية الأليمة ، اذ تراه يقول : « كان سجن الأسرى مواجها للمعسكر المؤقت الذى نزلنا فيه بعد الاجازة يفصله عنا سياج من الاسلاك ، ولكنهم كانوا

يصلون الينا برغم وجود هذا السياج .. كانوا يحومون حول معسكرنا ويلتقطون الفضلات الباقية من طعامنا القليل ينقبون عنها بين القمامة والأقذار ويستخرجونها من العلب بشراهة وكأنهم عثروا على كنز عظيم .. ان مشهد هؤلاء الاسرى الاعداء يفسح أمام الانسان مجالا كبيرا للتفكير ، فقد كانت تبدو عليهم امارات السذاجة ، وتقاطيع وجوههم تشعر بأنهم من الفلاحين الذين كان يجب فى هذا الوقت أن يزرعوا ويحصدوا .. والواقع أن مشـــهدهم وهم يستجدون ويمدون الينا أيديهم التماسا لما يسدون به رمقهم كان يثير فى النفس لواعج الاسى والرثاء .. فقــد ضعفت أجســادهم وهزلت هيــاكلهم لحاجتهم الى ما يمسك عليهم الحياة .. وكان بعض رجالنا يرفسونهم بأقدامهم فيسقطون على الأرض بأسمالهم البالية الممزقة التى لا تكاد تستر أجسادهم .. كانوا فى نظرى رمزا للخليقة المعذبة ، وصورة ناطقة لبؤس الحياة وأرزائها ، ودليلا صارخا على قسوة الانسان ووحشيته .. ان هذه الوجوه البريئة الساذجة مسوقة الى بلاء الحرب رغم ارادتها ، وما أحرانا أن نرق لأصحابها وننتزع من نفوسنا ما يخامرنا من حقد عليهم وما نضمره من شر لهم .. لكننا جميعا برغم هذا كله لا نتردد فى أن نقتل بعضنا بعضا اذا أخلى سبيلهم واستعادوا حريتهم .. لقد جزعت حقا .. ولم أجرؤ على التمادى فى هذه الهواجس .. فهى تؤدى بنا الى هاوية عميقة .. لكننى لن انسى هذه الخواطر ، بل سأحتفظ بها وأختزنها فى نفسى حتى تضع الحرب أوزارها .. لقد وجدت فى هذه الأفكار الهدف الذى كنت أنشده ، والغاية السامية العظمى التى كنت أتطلع اليها فى الخنادق .. لقد رأيت فى هذا الاتجاه العامل الوحيد الممكن لتوطيد حياة السلم بعد هذه الغاشية التى قضت على جميع المشاعر الانسانية ، وهى غاية اذا كرس الانسان نفسه لها كانت جديرة بهذا الثمن الفادح الذى تؤديه البشرية من دماء بنيها » .

***

وعلى الرغم من الهلاك المتربص بفتيان الرواية المتطوعين فى كل طرفة عين ، فقد كانت تعرض لهم لحظات هدوء يفكرون فيها فى الحال والمآل وفى علة حشدهم للموت ، فيدور بينهم مثل هــذا الحوار البسيط النافذ الى الأعماق :

« ـــ ان الموضوع يبدو عجيبا اذا فكر الانسان فيه . فنحن هنا

للدفاع عن وطننا .. والفرنسيون والانجليز هناك للدفاع عن وطنهم .. فأين الحق اذن فى الجانبين ؟

ــ ربما كان الحق فى جانب الطرفين .

ــ لكن مدرسينا وصحفنا وزعماءنا يقولون بأن الحق فى جانبنا وحدنا .. وكذلك يقــــول المدرسون الفرنسيون والانجليز وصحفهم وزعماؤهم بأن الحق فى جانبهم هم .. فأين الحقيقة ؟

ــ أينما كانت الحقيقة ، فالواقع ان الحرب دائرة ، وكل شهر يمضى يجر اليها دولا جديدة .

ــ ولكن كيف تنشب الحرب ؟

ــ غالبا تنشب باعتداء قطر على آخر .

ــ قطر ؟ ان جبلا فى ألمانيا لا يمكن أن يعتدى على جبل فى فرنسا أو انجلترا .. ومثل هذا ينطبق على الأنهار ، والغــابات ، والحقول .

ــ يا للغباوة ! ان الاعتداء هو اعتداء الناس بعضهم على بعض .

ــ اذن فلا شأن لى بهذا .. أنا لم أشعر بأن أحدا اعتدى على .

ــ يا للغفلة ! انه يعنى الشعب فى مجموعه .. أى الدولة .. وهى حتى يقع عليها الاعتداء .. وبدون الدولة لا كيان للشعب .

ــ لكن لا تنس أن الغالبية العظمى منا أناس بسطاء طيبون .. وغالبية الشعب فى فرنسا أو انجلترا أو غيرهما مؤلفة كذلك من العمال والصناع والمزارعين وصغار الموظفين .. فما الذى يدفع اذن حدادا فرنسيا أو عاملا انجليزيا للاعتداء علينا ؟ .. لا .. الحكام هم السبب .. ان الشعب الفرنسى أو الشعب الانجليزى لا ضلع له فى الحرب ، كالشعب الألمانى ..

ــ اذن فما هو سبب الحرب الحقيقى ؟

ــ لابد من وجود أناس معينين يفيدون من الحرب .. لا يمكن أن يكون الأمبراطور ، لأنه يملك ما يشتهى .

ــ أنا غير واثق من هذا .. فان عهده لم يتوج بحرب حتى الآن ، ولابدلكل امبراطور عظيم من حرب واحــــدة على الاقل تشب فى عهده ، والا خمل ذكره ولم يذع صيته .. ارجعــوا الى كتبــكم المدرسية .

ــ ... وكذلك القواد ، فهم يصيبون شهرة فى الحرب ، بل منهم من يشتهر أكثر من الاباطرة والحكام والزعماء .

ـ من المؤكد أن هناك غير هؤلاء أناسا آخرين يفيدون من اشعال نيران الحروب ، كتجار الاسلحة ومن اليهم من المنتفعين والاحتكاريين والاستغلاليين ..

ـ فى رأيى ان المسألة لا تعدو أن تكون لونا من الحمى .. فكل انسان راغب عن الحرب .. وفجأة تشب نارها .. وكذلك يقول الآخرون مثل قولى هذا .. ومع ذلك فنصف العالم غارق فى الحرب » .

***

ان قمة المأساة البشرية فى الحرب تتجلى على أشد الصور تأثيرا وايلاما وابتعاثا للدموع فى المآقى فى هذه الصورة الانسانية التى رسمها الراوى لعدد مهاجم استطاع هو أن يعاجله باغماد سلاحه فيه قبل أن ينقض عليه فى خندقه ابان معركة وحشية ، اذ يقول :
« ... ولم يمت الرجل ، بل كان فى النزع الأخير .. لكنه فتح عينيه وجعل يحدق الى بعينين مفعمتين فأبلغ آيات الرعب والهلع .. كانت الجثة ساكنة ، لكن رغبة الفرار التى نطقت بها عيناه كانت من بلاغة التعبير بحيث خيل الى انها ستحمل الجثة حملا وتفر بها ذعرا من الموت ـ أى منى ، لئلا أجهز عليه .. لقد تخاذلت ساقاى أمام هذا المشهد ، لكننى همست له : « لا ، لا ، لا » ، ورفعت يدى لكى يفهم اننى أريد اسعافه ومساعدته ووضعتها فوق جبينه ، فأغمض عينيه ، وذهبت عنه نوبة الفزع المميت .. كان فمه مفتوحا ، وحاول أن ينطق ، ولكن كانت شفتاه متصلبتين ، ولم تكن معى زجاجتى لكى أسعفه بمائها ، لكن كان يوجد ماء فى قاع الحفرة من الناحية الأخرى .. فهبطت اليها .. وأخرجت منديلى ونشرته وغمسته فى الماء الآسن وتلقيت القطرات التى أخذت تتسرب من مسام المنديل فى راحة يدى .. تجرع قطرات الماء ، وجئت له بغيرها ، ثم فككت سترته لكى أضمد جرحه ان كان ذلك ميسورا .. وعلى كل حال فقد كان لابد من هذه المهمة ، حتى اذا عثر الأعداء على واعتقلونى رأوا اننى كنت أحاول اسعاف زميل لهم ، فلا يعدموننى ... كان مصابا بثلاث طعنات هى التى وجهتها اليه ، فعصبتها بالضمادات التى نحملها فى الميدان ، وجلست انتظر ، موقنا ان نهايته آتية لا ريب فيها .. كان هذا الرجل الذى قتلته بيدى هو أول رجل أتيح لى أن أشهده عن كثب يعالج سكرات الموت ، ولئن كان

هذا الأمر شائع الحدوث فى الميدان ولا سيما فى القتال اليدوى ، الا أن كل شهقة صدرت من هذا الرجل كانت تمزق قلبى ، بل كان طول احتضاره بمثابة خنجر يغمده فى صدرى ، والويل لى من أهوال التفكير وطول الانتظار .. كم كنت على استعداد لأن أهب حياتى لكى يعيش ، فما أهول البقاء بجانبه ورؤيته والانصات الى نزعه وحشرجته .. ثم لفظ أنفاسه الأخيرة بعد ساعات هى أرهب وأقسى ما مر بى فى حياتى .. وكست وجهه مسحة الموت الأبدى .. لا ريب ان زوجته تفكر الآن فيه ، وربما أمه ، فهى لا تعلم ما أصابه ، وهى تنتظر رسالة منه تطمئنها على سلامته وتملأ قلبها صبرا وسكينة .. لو أننى لم أضل الطريق الى خنادقنا لعاش هذا الميت ثلاثين سنة أخرى .. لو أنه انحـــرف مترين الى اليسار لـكان الآن جالسـا فى خندقه يكتب رسالة الى زوجته ، أو أمه .. لكن ما فائدة من هذه الأحـلام .. فان هـذا مصيرنا جميعا .. وقد سبق السيف العزل ، ولا سبيل الى رد القضاء .. وفى وطأة الصمت والظلام الفيتنى أناجى الميت وكأنه يسمعنى : أيها الزميل — لم أكن أنوى قتلك .. ولو وثبت الى هنا مرة ثانية فلن أفعل شيئا يضرك ، اذا أمسكت يدك عنى .. لكنك كنت فكرة تجسمت فى خيـالى قبل مجيئك ، وشغلت فراغ ذهنى ، وكان لابد لها أن تلقى نهايتها المحتومة .. أنا لم أطعنك ، وانما طعنت هذه الفكرة المخيفة التى تسلطت على ، فكرة المباغتة والمبادأة .. لكننى أرى الآن وللمرة الأولى ، انك انسان مثلى .. كنت أفكر من قبل فى قنبلتك اليدوية ، وفى حربتك ، وفى بندقيتك .. اما الآن فلست أرى الا زوجتك — أو أمك — ووجهك ، وزمالتك .. اغفر لى أيها الزميل واصفح عنى ، فنحن لا نفتح أعيننا الا بعد فوات الأوان .. لم لا يقال لنا أنكم بؤساء مثلنا ، وان أمهاتكم أو زوجاتكم يتلهفن لوعة وجزعا مثل أمهاتنا وزوجاتنا ، واننا جميعا نشترك فى الخوف من الموت ، واننا سواء فى الاحتضار والنزع ؟ .. اصفح عنى أيها الزميل .. كيف يمكن أن تكون عدوا لى ؟ لو اننا طرحنا هذه البنادق والكسى العسكرية ، لما كنت الا أخا لى .. خذ عشرين سنة من حياتى أيها الزميل ، وقم .. بل خذ أكثر من هذه المدة ، فلست أدرى بعد الآن كيف أنتفع بهذه الحياة » .

***

وهل بعد هـذه الصرخة الانسـانية المعـذبة مزيد من الويلات

والكروب ؟ .. ان ميدان الحرب طافح بصور منها أنكى وأفدح .. لقد أصيب راوى القصة فى احدى الملاحم بجرح بالغ فى فخذه ، وبعد جراحة ونقاهة استطاع أن يتنقل بعكازين ، وفى وصفه للمشاهد المؤسية حوله يقول : « كان الطابق الذى يلينا فى المستشفى مخصصا لجراح البطن ، والعمود الفقرى ، والرأس ، وحالات البتر المزدوجة .. وفى الجناح الأيمن جراح الفك ، والاختناق بالغازات ، والأنف والأذن والعنق .. وفى الايمن حالات العمى وجراح الرئة والمفاصل والأمعاء .. فى هذا المستشفى يدرك الانسان لأول مرة ان قتلاه وجرحاه لا حصر لهم .. ومع ذلك ، فليس هذا سوى مستشفى واحد .. وهناك مثله مئات الآلاف فى كافة أنحاء ألمانيا .. ومئات آلاف أخرى فى فرنسا وانجلترا وروسيا .. وما دامت كل هـذه الفظائع تحدث ، فلا خير فى شيء ، ولا فائدة من الكتابة ، أو الفعل، أو التفكير .. ان كل شيء فى الحياة عبث وخداع اذا كانت حضارة آلاف السنين لا تستطيع أن توقف سيل الدماء التى تتدفق مدرارا ، ولا أن تحول دون هذه الجروح المروعة التى تكتظ بها غرف العذاب فى مئات ألوف المستشفيات .. ان المستشفى وحده يبين ما هى الحرب ويصورها تصويرا مجردا .. » .

***

وتتعاقب الأيام والأسابيع والشهور والاعوام مصبوغة بدماء هذه المجازر البشرية التى لا تنتهى .. ولم يبق على قيد الحياة من زملاء الرواد فى الدراسة ، السبعة ، سواه .. ويجيء حديث الهدنة اخيرا بعد أن تفوق الحلفاء ولاحت فى ألمانيا نذر الهزيمة والاستسلام .. ويجلس البطل فى نقاهة من اصابة بالغازات الخانقة فى دوامة من أفكاره المضطربة : « كان حديث الهـدنة والسلم على كل لسان ، وبعدها نذهب الى مواطننا .. فى هذا الوقت كان كل ما يخامرنى ويغمرنى هو الاحساسات الفياضة ، احساسات التعطش الى الحياة، والتلهف الى البيت ، والحنين الى الأهل ، ونشوة النجاة ، وان كنا سنعود منهكين ، محطمين ، محترقين ، مزعزعين ، ضائعى الآمال ــ لكن بلا هدف ولا غاية .. أما فى نضارة الشباب .. أنا فى العشرين من عمرى .. لكننى لا أعرف من الحياة غير اليأس ، والموت، والخوف ، والأحزان ... لقد رايت كيف توغر الشعوب بعضها ضد بعض ، وتتطاحن فى صمت ، وجهالة ، وغباوة ، واستسلام ،

وغفلة .. ويشاركنى هذا الرأى الشباب المعـــاصر فى وطنى وفى الأوطان الاخرى فى كافة أرجاء العـــالم .. ان الجيل الحاضر يرى هذه الاشياء بجلاء ويلمسها معى .. ماذا يقول أسلافنا اذا وقفنا أمامهم فجأة وقدمنا اليهم حسابا عما فعلناه ؟ وماذا يرتقبون منا اذا قدر للحرب ان تضع أوزارها ؟ كانت مهمتنا طوال السنين هى التقتيل والتذبيح .. كانت مهمتنا الاولى فى الحياة .. ان علمنا بالحياة لم يتجاوز حدود الموت .. فماذا يكون من أمر الغد ، والى أى مصير نحن مسوقون ؟ » .

***

ويا له من مصير لراوى القصة ، قبيل عقد الهدنة ، فى يوم شمل هدوءه نواحى الميدان جميعا ، حتى لم يذكر عنه فى التقرير الحربى سوى هذه الـكلمات : « كل شىء هادىء فى الميدان الغربى » .. ليرجع اليه القارىء فى السطور الاخيرة من الرواية ، فدون وصفه تعجز الاقلام عن كل افاضة أو تعليق ...

***

وبعد ، لقد آمنا وآمن أكثر العالم بأن الحرب هى بلاء البشرية الأكبر ، واخترنا طريقنا الى السلام لكى نكرس كل جهودنا للتعمير والبناء والرخاء .. ولكن العـــالم برغم هـــذه الصيحات الانسانية المخدرة من الحرب والداعية الى السلام لم تنقطع منه حروب العدوان والمطامع الدولية المتربصة بأمن الشعوب المسالمة ، فلا معدى لنا اذن عن الأخذ بأسباب القوة دفعا للعدوان وصونا للسلام ، وهذا ما نحن فاعلون ، ولكن يوم يجد الجد سوف نسترخص كل غال فى سبيل الذود عن أطاوننا والدفاع عن وجودنا الحر الكريم .

محمود مسعود

الفصل الأول

ذهبنا للاستراحة على بعد خمسة أميال خلف ميدان القتال .. وبالأمس فقط انتهت نوبتنا ، وكانت بطوننا اليوم ممتلئة حتى التخمة ، وكل منا قرير العين ناعم البال .. بل تزود كل رجل لوجبة العشاء سلفا بنصيب وافر من « الفاصوليا » والخبز والسجق .. وهذا رخاء عجيب لم نحلم به من زمن طويل !

ومن عجب ان الطاهى كان يرجونا أن نأكل .. وكان يومىء بمغرفته الى كل جندى يمر أمامه ، ويتحفه بسخاء مدهش .. وذهب اليه جادن وموللر باناءين كبيرين فملأهما حتى القمة ، واحتفظا بهما كاحتياطى للطوارىء !

وهذه الظاهرة فى جادن هى من قبيل الشراهة .. أما عند موللر فهى بعد نظر .. لكن ما يحير العقول هو أين تذهب هذه الكميات التى يحشو جادن بها جوفه ، فهو نحيف كالعود ، ولم يتغير يوما عن هذا الوصف !

والذى كان يلفت النظر أكثر من ذلك هو عدد السجائر التى وزعت علينا .. فقد كانت حصة كل رجل ثلاثين سيجارة .. وهذا نصيب لم يكن مألوفا من قبل ..

ومن الحق أن أقول ان هذه الغنيمة جاءت عفوا .. ولولا خطأ فى التقدير والحساب لمافزنا بها .

فمنذ أسبوعين ذهبنا الى ميدان القتال لكى نخلف زملاءنا فى الصفوف الامامية ونعطيهم قسطا من الراحة .. واستمر الهدوء يسود الخندق الذى نزلت به كتيبتنا ، ولم يستهدف أحد منا للموت . ولذلك أمر ضابط المؤونة الذى بقى فى المؤخرة باعداد الطعام كاملا للكتيبة المؤلفة من مائة وخمسين رجلا .. ولكن فوجئنا فى اليوم الاخير ببطارية من المدافع الانجليزية الثقيلة أخذت تمطرنا بمقذوفاتها بلا انقطاع ، حتى تكبدنا خسائر جسيمة .. وعدنا ثمانين

رجلا فقط صالحين لحمل السلاح .
وفى الليلة الماضية تراجعنا ، ولما وصلنا الى مقر الكتيبة ذهبنا نلتمس النوم لأول مرة بالمعنى المفهوم .. فاننا لم نكد نذوق طعم النوم فى ميدان القتال مدة أربعة عشر يوما ..

كان الوقت ظهرا حينما زحف طليعتنا من فراشه .. وما هو الا نصف ساعة حتى تكامل جمعنا أمام المطبخ حيث فاحت الرائحة شهية تسيل اللعاب ، وبيد كل منا اناؤه .

وكان على رأس الصف بالطبع أشدنا جوعا .. أعنى البرت كروب الصغير ، وهو أقدرنا فى مسائل العقـل والتفكير ، ومولل الذى لم يزل يحمل معه كتبه الدراسية ، وهو يحلم دائما بالامتحانات، وتراه أثناء أمطارنا بالقنابل يغمغم نظريات على الطبيعة ، ولير ذو اللحيـة الـكاملة الذى يفضل من الفتيات عشيقات الضباط ، أما رابع الجياع فهو كاتب هذه السطور ، بول بومر . ونحن الاربعة فى التاسعة عشرة من أعمارنا ، وقد تطوعنا جميعا فى صفوف الجيش من فصل واحد بمدرسة واحدة .

وكان يلينا مباشرة أربعة أصدقاء آخرون .. أولهم جادن ، وهو حداد هزيل فى سننا ، وأكبر أكول فى الفـــرقة ، تراه يجلس للأكل ضئيلا كالجرادة ، فاذا نهض كان منتفخا كالقربة . وثانيهم هاى ديستوس ، وهو حطـاب يمسك الرغيف فى يده ويقـول : « خمنوا ماذا فى يدى » وثالثهم ديترنج ، وهو فلاح لا يفكر الا فى مزرعته وفى زوجته . ورابعهم كات ، زعيم جمعيتنا غير منازع ، وهو رجل فى الأربعين من عمره ، ذكى ، ماكر ، كثير التجارب ، أسمر الوجه ، أزرق العينين ، مقوس الكتفين ، ذو أنف عجيب له قدرة على التنبؤ برداءة الطقس ، ومخابىء الأكل .

كانت عصابتنا فى طليعة الصف أمام المطبخ .. وبدأنا نتذمر ، فان الطاهى لم يعرنا اهتماما .

وأخيرا ناداه كات قائلا :

ــ انت يا هنريخ ! .. افتح « مطعم الشعب » ! .. « الفاصوليا استوت » من مدة ! ..

ثم هز رأسه كالنائم وأردف :

ــ يجب ان نصل جميعا فى المقدمة .

فرد عليه جادن :

ـ نحن كلنا هنا .
لم يهتم الطاهى بنا .. وبقى على استهتاره وقال :
ـ أنت تتكلم عن نفسك . لكن اين الباقون ؟
ـ لن يتشرفوا اليوم بالأكل من يديك . فهم اما فى عنبر الجراحة أو يأكلون فى الجنة .
جزع الطاهى حينما تجلت له الحقيقة . وكاد يترنح . وهتف :
ـ انني أعددت الطعام لمائة وخمسين رجلا !
فدفعه كروب فى صدره قائلا :
ـ اذن سننال كفايتنا لأول مرة فى التاريخ . تفضل . اغرف .
وفجأة طافت رؤيا أمام مخيلة جادن الأكول .. فتلألأت ملامح وجهه .. وضاقت عيناه مكرا .. واختلج فكاه .. وهمس فى صوت أجش :
ـ اذن فعندك خبز المائة وخمسين رجلا ايضا ؟ ..
أومأ الطاهى برأسه ايجابا وهو شارد الفكر مبلبل الخاطر .. فأمسك به جادن من سترته وهتف :
ـ وعندك سجق بهذه الكمية أيضا ؟ ..
فأومأ الطاهى ايجابا للمرة الثانية .
فاستطرد جادن وقد ارتعش أنفه :
ـ وسجائر كذلك ؟
ـ نعم . كل شيء .
هتف جادن وقد تهلل وجهه :
ـ يا لها من وليمة ! .. كل هذا لنا ! . لكل رجل نصيب مضاعف!
لكن الطاهى صدمه قائلا :
ـ هذا لا يمكن ..
واشتد بنا الانفعال ، وتجمهرنا حول الطاهى ، وقال كات :
ـ ولم لا يمكن يا وجه الجزرة ؟ ..
ـ لا يمكن أن يأخذ ثمانون رجلا نصيب مائة وخمسين ..
فزمجر موللر :
ـ سنريك كيف يمكن هذا ..
وتشبث الطاهى برأيه قائلا :
ـ لا تهمنى (الفاصوليا) .. لكن لن أوزع باقى الاصناف الا بالمعدل المعتاد لكل واحد ، أى لثمانين رجلا فقط .

ففضب كات وهتف :

ـ كن سخيا مرة واحدة فى حياتك ! .. انت لم تجهز الطعام لثمانين رجلا .. بل جهزته (للكتيبة الثانية) ، وما دام الأمر كذلك فكل ما جهزته حلال لنا ، فاننا نحن « الكتيبة الثانية » .

أخذنا ندفع الطاهى .. لم نكن نحمل له حبا مفقودا .. فقد كان الأكل يصل الينا فى ميدان القتال باردا وفى وقت متأخر جدا بسببه وحده ، ولم يكن يرضى أن يتقدم كثيرا بمطبخه تحت القنابل ، ولذلك كان المكلفون بتوزيع الطعام يضطرون لقطع مسافة أطول مما يقطعه زملاؤهم فى الكتائب الاخرى ، ولست أظلم طاهينا فى هذه الشهادة ، فان بولك طاهى « الكتيبة الاولى » رغم بدانته ينصب أوانيه على مسافة وجيزة من ميدان القتال .

كنا محقين فى هذا الاحتجاج ، وكاد الموقف يتطور من سيىء الى أسوأ ، لولا حضور قائد الكتيبة ، الذى فهم موضوع النزاع وقال :

ـ نعم .. أصبنا بخسائر جسيمة أمس ..

ثم نظر الى اناء الفاصوليا وقال :

ـ شكلها لا بأس به .

فأومأ الطاهى جينجر برأسه وقال :

ـ هى مطهية باللحم والشحم .

وتطلع الضابط الينا . وأدرك ما يجول فى رءوسنا . وفهم أشياء أخرى لا تحتاج الى تفسير . فقد التحق بالكتيبة برتبة صف ضابط وارتقى فى سلكها . ولذلك رفع غطاء الاناء ثانية وتشمم محتوياته وقال :

ـ جهز لى طبقا مملوءا .. ووزع كل ما عندك . فنحن فى حاجة الى كل شىء .

بدت على جينجر دلائل الانكسار والخنوع . بينما اخذ جادن يرقص حوله . وهو يقول :

ـ لن تخسر شيئا .. هل تحسب ان مخزن المؤونة ملكك ؟ والآن نفذ الاوامر بسرعة . ولا تغالط .

فقال جينجر وهو يبصق :

ـ لتذهب الى الشيطان .

كان جينجر اذا خرج الامر من يده يسرف ولا يبالى ما تكون العواقب . وكأنما اراد أن يبين لنا ان كل شىء يستوى الآن عنده ،

فانه تبرع بمحض ارادته ومنح كلا منا نصف رطل من العسل .

***

كان اليوم طيبا بديعا ، فقد ورد البريد ، وحصل كل جندى على بضع رسائل وصحف .

وأخذنا نتمشى فى المروج الممتدة خلف المعسكر ، وتأبط كروب غطاء برميل .

كان يوجد الى يمين المروج مراحيض عمومية مسقوفة ، لكن مثل هذه المراحيض يستخدمها المتطوعون الجـدد الذين لم تتوفر لهم الخبرة ولم يتعلموا كيف ينتفعون بكل ما يصادفونه فى طريقهم . أما نحن معاشر القدماء فكنا نتطلع الى أحسن من هذا .

ولهذا الغـــرض كانت تنتشر فى جوانب المروج صناديق مفردة منفصلة لها مقاعد مريحة نظيفة . ولهذه الصناديق مقابض يمكن بها نقلها من مكان الى آخر ..

نقلنا ثلاثة من هذه الصناديق ووضعناها فى دائرة وجلسنا فى راحة تامة ..

وأذكر لهذه المناسبة كم كان ارتباكنا حينما استخدمنا المراحيض العمومية فى أول عهدنا بالتطوع فى الخدمة ، فلم يكن لهذه المراحيض أبواب تفصلها ، وجلسنا نحو عشرين شابا جنبا لجنب كأننـــا فى مركبة سكة حديد ، ظاهرين للعيان ، فان الجنود يجب أن يكونوا تحت المراقبة فى أى وقت ..

ومنذ ذلك الوقت توفر لنا من الاختبارات ما جعلنا نطرح الخجل جانبا من أمثال هذه السفاسف ، فقد مرت بنا أوقات رأينا فيهــا أهوالا ومصاعب جعلت هذه الامور تتضاءل فى أنظارنا .

والواقع اننا نجد فى هذا الامر وفى الهواء الطلق لونا من اللذة . ولم أعد أفهم الآن كيف يجوز لنا ان نخجل من هذه المسائل كمــا كنا فى الماضى ، فهى فى الواقع طبيعية كالأكل والشرب ، وكان من الممــكن ألا نحفــل بهــا بتاتا لولا اننا جسمناها أول الامر فى اذهاننا . أما الآن فهى فى نظر القدماء من قبيل العادات المألوفة المتكررة .

ان الجندى أكثر الناس اتصالا بمسائل المعدة والامعاء ومشتقاتها . وثلاثة أرباع كلامه يدور حول هذه الدائرة ، وهو يرددها فى حالات السرور أو الغضب ترديدا مستمرا ، ومن المستحيل أن يعبر عن

احساسه بغير هذه الوسيلة ، ولا ريب أن أهلينا ومدرسينا سيرتاعون اذا عدنا اليهم بهذا المحصول ، لكن هذه هي اللغة العالمية في ميدان القتال .

كانت الساعات التي قضيناها في هذه الجلسة جميلة سعيدة . فالسماء الزرقاء فوقنا ، وفي الأفق تسبح مناطيد المراقبة تنعكس فوقها أشعة الشمس ، وسحب الدخان الصغيرة البيضاء المنبعثة من قنابل المدافع المضادة للطائرات ، تنثني في الفضاء ، ودوي المدافع في ميدان القتال لا يصل الى آذاننا الا خافتا مكتوما كأنه قصف رعد بعيد ، والمروج المزهرة تنبسط حولنا ، والفراش الأبيض يحوم على أجنحة هواء الصيف الذاهب .

في هذا الجو البديع جلسنا نطالع الرسائل والصحف وندخن .. وخلعنا قلانسنا ووضعناها على الارض قربنا ، فأخذ الهواء يعبث بشعورنا ، ويداعب أفكارنا وخواطرنا ..

وضعنا غطاء البرميل فوق ركبنا ، فكان منه في هـذا الوضع طاولة لا بأس بها ، وأخذنا نلعب الورق ، الذي جاء به كروب ..

وبين وقت وآخر كنا نكف عن اللعب ، ونستسلم للصمت .. فـكل منا كان يحس في نفسه بضيق وتوتر .. ولم نكن في حاجة الى التعبير عن هذه الحالة التي كانت ظاهرة يلمسها كل منا .. فقد كان ممكنا ألا تجلس اليوم هذه الجلسة .. ومرت بنا لحظات كان الموت فيها فوق رقابنا ..

ولذلك كان كل شيء الآن جميلا في أنظارنا .. فمن طعام شهي الى سجائر لذيذة .. ومن نسيم عليل الى طبيعة مشرقة .

وقال كروب :

ـ هل رأى أحدكم كمريخ اخيرا ؟ ..

فأجاب موللر أنه أصيب بجرح بلغ في فخذه ، وأنه موجود في مستشفى سانت جوزيف ..

فاستقر رأينا جميعا على زيارته في أصيل اليوم ..

ثم أخرج كروب رسالة من جيبه وقال :

ان أستاذنا كانتوريك يبعث اليكم جميعا بأطيب تمنياته ..

ضحكنا .. وقال موللر وهو يرمي سيجارته :

ـ ليته كان هنا ..

كان كانتوريك ناظر مدرستنا .. وهو رجل ضئيل الجسم ، صارم، له وجه فأر .. وهو في حجم يشـــبه « الأنباشي » هملستوس المخيف .. ومن عجب أن شقاء العالم يكون غالبا على أيدي ضئال الاجسام .. فهم أشد نشاطا وأصلب أعوادا من ضخام الاجسام . وكثيرا ما بذلت جهدي لاجتناب العمل تحت امرة قواد من القصار .

كان كانتوريك يحاضرنا أثناء الالعاب الرياضية عن وجوب التطوع في الجيش ، حتى ذهب فصلنا بكامل أفراده تحت قيادة كانتوريك الى مكتب القائد المحلي ، وتطوعنا ، واني أراه الآن بعين الخيـــال وهو يحدق الينا من خلف نظارته قائلا في صوت مؤثر :

ـ هلا تطوعتم في الجيش أيها الرفاق ؟ ..

وكان بيننا زميل تردد ولم يحب الانضمام الى الجيش .. هو جوزيف بيهم ، وهو مخلوق وديع مسالم ، لكنه امتثل أخيرا حتى لا يرمى بالجبن وينبذ من حظيرة المجتمع ، وربما كان كثيرون منا يشاركونه رغبته واحساسه ، بيد أن أحدا منـــا لم يكن يقوى على احتمال النتائج ، فقد كانت كلمة « جبان » في ذلك الوقت متحفزة على كل لسان ، حتى لسان الآباء والامهات ، ولم يكن يخطر ببال انسان شيء عن حقيقة العالم الذى نساق اليه ، وكان العقلاء وحدهم هم الفقراء والسذج ، فقد كانوا يعلمون أن الحـــرب بلاء ونكبة ، في حين ان الاغنياء الذين يجب أن يكونوا اكثر ادراكا للحقائق لقد استخفهم الطرب واعماهم الفرح ..

وقد علل زميلي كات هذه الظاهرة بأنها نتيجة التربية التي جعلت هؤلاء متبلدين جامدي الادراك ..

ومن عجب ان جوزيف بيهم كان أول الصرعى في الميدان .. فقد أصيب أثناء الهجوم في عينيه ، وتركناه خلفنا يموت دون أن نتمكن من حمله معنا اذ تقهقرنا في غير انتظام ، وفي الأصيل سمعناه ينادينا ، ورأيناه يزحف هائما ضالا .. ونظرا لانه فقد بصره وجن جنونه المـــا ، فقد عجز عن الاحتماء من مرمى القنابل ، وهكذا قضى عليه بمقذوف قبل أن يتسنى لأحدنا الذهاب اليه واحضاره .

وطبيعي انه لم يكن يسعنا أن نلوم كانتوريك لهذا المصير .. فاين يكون العـــالم في هذا الوقت لو كان كل انسان يحاسب على ما يفعل ؟ وهناك في الواقع آلاف من امثال كانتوريك ، يعتقدون اعتقادا جازما بأنهم يفعلون الخير ، وبطريقة لا تكلفهم شيئا .. وهـــذا هو السبب

فى أنهم يقذفون بنا الى هذا المصير .

كان واجب هؤلاء أن يكونوا لنا نحن فتيان الثامنة عشرة ، هداة مرشدين الى عالم الـكمال ، عالم الجد والواجب والثقافة والتقدم .. وبعبارة أخرى كان يجـــدر بهم أن يأخذوا بأيدينـا الى المستقبل ..

صحيح اننا كنا أحيانا نتهكم منهم ونداعبهم ، لـكننا كنا نثق بهم فى أعماق نفوسنا .. وكانت فـكرة السيطرة والمسئولية التى يمثلونها تقترن فى عقولنا ببعد نظرهم وانفساح شعورهم الانسانى .

وسرعان ما انهار هذا الاعتقاد فى نفوسنا حينما رأينا أول مصرع أمامنا .. وأدركنا أن جيلنا أجدر أن يكون محل الثقة والاعتبار من جيلهم الغـابر .. فهم كانوا يفوقوننـا فقط فى البراعة وتنميق الكلام . والواقع ان أول غارة شنت علينا بينت لأعيننا خطأ تفكيرنا القديم ، وبزوال هذا التفكير تداعت أركان العالم الذى صوروه لنا .

فى الوقت الذى كانوا يكتبون ويتكلمون ، كنـا نرى الجرحى والقتلى .. وبينما كانوا يلقنون الناس ان واجب الانسان لوطنه هو اجل شىء فى الحياة ، كنا ندرك ان سكرات الموت اجل واعظم .

بيد اننا برغم هذا كله لم نكن متمردين ولا متخلفين عن الصفوف ولا جبناء .. وما أسخى ما كانوا يبذلون من هذه الكلمات .

نحن نحب وطننا كما يحبونه .. وكنا نواجه الخطوب بقلوب لا تتزعزع ، لكننا كنا نميز الصحيح من الزيف ، وانجابت عن أعيننا الأغشية فجأة ، فأصبحنا نرى الحقيقة ، ورأينا انه لم يبق حجر من عالمهم ، فقد أصبحنا فجأة فى وحشة هائلة مروعة ، ولم يكن بد من أن نسير الى النهاية وحدنا .

***

حزمنا أدوات كمريخ قبل الذهاب اليه وحملناها معنا ، فانه سيحتاج اليها عند العودة .

ألفينا المستشفى يموج بالحركة .. وكانت روائح الفنيك والصديد والعرق تفوح فى أرجائه كالعادة ، ومع اننا ألفنا كثيرا من الروائح فى الثكنات والميادين فان الروائح التى دهمت انوفنا فى المستشفى كادت تصيبنا بالاغماء ..

ذهبنا الى حيث يوجـــد كمريخ .. فوجدناه راقدا فى غرفة

فسيحة ، واستقبلنا فى فرح يمازجه الانفعال ، فقد سرقت ساعته أثناء غيبوبته .

هز موللر يده قائلا :

ــ كنت أنصحك دائما ألا تحمل مثل هذه الساعة الثمينة ..

كان موللر فى هذا الموقف أقرب الى الغباوة والتبلد .. فقد كان يبدو لـكل ذى عينين ان كمريخ لن يغادر هذا المكان ، وسواء وجد ساعته أو لم يجدها فلن يغير هذا شيئا من الحقيقة الواقعة . وأقصى ما يمكن عمله اذا وجدت هذه الساعة أن يردها الانسان الى أهله ..

سأله كروب :

ــ كيف حالك يا فرانز ؟ ..

فأجاب كمريخ وقد غاصت رأسه فى الوسادة :

ــ لا بأس .. .لكنى أحس بألم هائل فى قدمى ..

نظرنا الى غطائه .. كانت ساقه تحت سلك مرفوع محدب يحجبه الغطاء ..

ركلت موللر فى عقبه .. فقد كان يوشك أن يخبر كمريخ بمـا علمناه من الممرضين فى الخارج .. وهو أن كمريخ فقد ساقه .. بترت السـاق .. وكان كمريخ يبدو متقلص السحنة ممتقع اللون .. على وجهه تلك الدلائل التى رأينـاها فى وجـوه كثيرين قبله ..

لم تكن الحياة تجيش تحت جلده .. وكان الموت يتسلل فى هيكله ويبدو فى عينيه ..

ها هو ذا زميلنا كمريخ راقد .. وقد كان منذ وقت وجيز جالسا القرفصاء معنا فى الخنادق يشوى لحم الخيل ..

ها هو ذا بعينه .. ولكنه مخلوق آخر .. على باب القبر ..

عاد بى الفكر الى وقت سفرنا معا الى الميدان .. فقد ودعته أمه الطيبة القلب الى المحطة ..

كانت تبكى بكاء مستمرا حتى تورم وجهها ..

وارتبك كمريخ من حالتها ، فقد كانت أقل الموجودين تمالـكا لعواطفها ..

ولمـا رأتنى تناولت ذراعى وجعلت تتوسل الى ان أرعى فرانز فى الميدان .. والواقع انه كان له وجه طفل .. وكانت عظامه

هشة حتى دميت أقدامه بعد شهر من حمل عتاد الجندى .. لكن كيف يتاح لأى انسان أن يرعى أحدا فى الميدان ؟ ..

قال كروب للزميل الجريح :

ـ ستعود الى بيتك قريبا .. ولولا هذا الحادث لانتظرت حوالى أربعة أشهر قبل الحصول على اجازة .

أومأ كمريخ برأسه .. أما أنا فلم أقو على النظر الى يديه .. فقد كانتا فى لون الشمع .. وكانت قذارة الخنادق تبدو تحت أظافره مزيجا من السواد والزرقة كالسم ..

انحنى موللر فوقه وقال له :

ـ أحضرنا معنا أدواتك يا فرانز ..

فأشار كمريخ بيده يطلب اليه أن يضعها تحت السرير .. فامتثل موللر .. وعاد كمريخ لابداء انزعاجه بسبب فقد ساعته . فاحترنا ولم ندر كيف نهدئه دون أن نثير ارتيابه فى مصيره ..

نهض موللر من تحت السرير حاملا حذاء طيار ..

كان الحذاء من نوع انجليزى دقيق ، له جلد رقيق أصفر يرتفع حتى الركبتين .. وهو حذاء يشتهيه الجندى حقا ..

أبدى موللر طربه من هذا الحذاء .. وجعل يقارنه بحذائه الخشن ويقول :

ـ هل تأخذه معك اذن يا فرانز ؟

كانت تخالج ثلاثتنا فكرة واحدة .. فاذا فرض وشفى زميلنا المسكين ، فلن يستخدم سوى « فردة » واحدة .. ولذلك لم يكن هذا الحذاء يفيده وأما والنتيجة كما نتوقع فمن المؤلم أن يبقى الحذاء فى مكانه حيث يستولى عليه خدم المستشفى حالما يلفظ كمريخ أنفاسه ..

قال موللر ..

ـ الا تترك الحذاء معنا يا فرانز ؟ ..

لم يقبل كمريخ .. فقد كان الحذاء أعز ما يملكه ..

قال موللر من جديد :

ـ لا بأس .. يمكن أن نتبادل شيئا فى مقابله .. هو حذاء يمكن الانتفاع به هنا ..

لكن كمريخ لم يتزحزح عن رفضه ..

دست على قدم موللر .. فأعاد الحذاء الجميل مكرها الى مكانه تحت السرير ..

وتجاذبنا أطراف الحديث قليلا ، ثم استأذنا فى الانصراف .. وقد وعدته أن أعود فى الصباح .. وقرر موللر مثل هذا ، فهو يفكر فى الحذاء ، وهو يعنى ما يقول ..

كان كمريخ يئن ويتأوه .. وانتابته الحمى .. فاستوقفنا احد الممرضين فى الخارج وطلبنا منه أن يعطى كمريخ حقنة مخدرة حتى ينام ..

رفض الممرض قائلا :

ــ لو اعطينا كل جريح حقنة لوجب ان يكون عندنا براميل مملوءة ..

فقاطعه كروب بحقد :

ــ أنتم تعتنون فقط بالضباط ..

فتدخلت بسرعة وأعطيت الممرض سيجارة .. فقبلها ..

سألته :

ــ هل يسمح لكم فى العادة باعطاء الحقن إذن ؟ ..

أجاب فى تذمر :

ــ اذا لم يكن هذا رأيك ، فلم تسأل ؟ ..

دسست فى يده بضع سجائر أخرى ، وقلت له :

ــ اعمل هذا المعروف ..

فأجاب :

ــ لابأس .. كما تشاء ..

ورافقه كروب الى الداخل . فهو لم يثق به .. واراد أن يرى بعينيه .. بينما انتظرنا فى الخارج .

عاد موللر الى موضوع الحذاء قائلا :

ــ هو يطابقنى تماما .. هل تظن انه سيعيش حتى غد بعد اتمام التدريب ؟ .. لو مات فى الليل ، فان الحذاء سيكون ..

وعاد كروب فى هذه اللحظة .. وقال :

ــ هل تظنون ؟ ..

فأجاب موللر بلهجة الواثق :

ــ هو فى حكم المنتهى ..

ــ عدنا الى أكواخنا .. وجعلت أفكر فى الرسالة التى يتحتم

علی أن أحررها غدا الى أم كمريخ .. فجمد الدم فى عروقى ..
وانتزع موللر بعض الحشائش من الارض وجعل يمضعها ..
وفجأة قذف كروب الصغير بسيجارته .. واحد يدوس فوقها بوحشية وراح يتطلع حوله مضعضع الحـــواس مشتت البال .. وغمغم :
ــ قبح الله هذا الوجود اللعين ! ..
كانت هذه النوبات مألوفة لدينا .. وما لبث كروب ان استرد هدوءه وسأله موللر :
ــ ماذا قال لك كانتوريك فى رسالته ؟ ..
ضحك كروب وأجاب :
ــ قال اننا نحن الشباب الحديدى ..
ابتسمنا بمرارة ..
نعم .. تلك هى نظـــرة كانتوريك وآلاف غيره الى الموضوع .. الشباب الحديدى ..
لم نكن نتجاوز جميعا العشرين من أعمارنا .. لكن هل نحن شباب حقا ؟ ..
كان هذا فى الماضى البعيد .. أما الآن فقد شبنا ودبت الـكهولة فىنفوسنا ..

الفصل الثانى

مما يدعو الى العجب أن أقرر انى تركت فى درج مكتبى فى بيتى بعض الفصـــــول الاولى من رواية تمثيلية كنت أكتبها ، وبعض القصائد ..

وقد أمضيت ليالى عدة فى انشائها وتدبيجها .. وكثيرون منا فعلوا هذا فى شبابهم .. لكن هذا كله أصبح فى نظرى خيالا ، وانقطعت الصلة بينى وبين هذا الماضى ..

ان حياتنا المبكرة قد بترت بترا منــذ أن وطئت أقدامنا ميــدان القتال ، دون أن يكون لنا يد فى بترها ..

وكثيرا ما نحاول أن نلقى نظرة على حياتنا الماضية ، وأن نجــد تفسيرا .. لكن قلما ننجح ..

ان كل شىء أصبح غائما فى أنظارنا نحن شبان العشرين .. الذين ينعتهم كانتوريك باسم « الشباب الحديدى » .

ان للذين يسبقوننا فى العمر اتصالا بحياتهم الماضية .. فلهم زوجات وأولاد ومهن ومشاغل .. ولهم حصن من الماضى يلجأون به ولا يمكن أن تدمر الحرب معالمه ..

أما نحن شباب العشرين فليس لنا سوى آبائنا وأمهاتنا ، وبعضنا له خطيبة .. لكن لا يعول كثيرا على هذه الصلات ، فان سلطان الأبوة والأمومة يتضاءل فى مثل هذه السن ، ولا تؤثر الفتيات فى نفوسنا تأثيرا قويا .. ولنا فوق هذا حمـــاسة الشباب وبعض الهوايات ومدارسنا .. لكن حيــاتنا لا تتجاوز شيئا بعد هـــذه الحدود . ولم يبق لنا الآن منها شىء ..

ويمكن أن يقول كانتوريك اننا كنا نقف على عتبة الحياة .. وهذا صحيح .. فان شجرة حياتنا لم تتأصل بعد .. وقد اكتسحتنا الحرب وطوحت بنا ..

فالحرب لا تعدو أن تكون فترة انقطــاع بالنسبة لهؤلاء الذين

يسبقوننا سنا .. وفى وسعهم أن يفكروا فيما يليها .. أما نحن فقد أطبقت علينا الحرب بقبضتنا ولا ندرى ماذا تكون النهاية .. وكل ما ندريه هو اننا أصبحنا أرضا فقراء مجدبة فى طرفة عين ..
ومهما يكن .. فان هذه الصور الكئيبة لا تساورنا دائما ..

***

اذا كان موللر يبتهج بالاستيلاء على حذاء كمريخ .. فهو لا يقل عن غيره عطفا على هذا الزميل ولا حزنا لمصيره ..

لكنه يرى الأمور بعين الحقيقة .. فلو كان كمريخ فى حالة تمكنه من استخدام الحذاء ، لآثر موللر أن يسير عارى القـــدمين فوق الأسلاك الشائكة ، على أن يدبر الاستيلاء على حذاء صديقه . أما الواقع فهو ان الحذاء فى ظروف كمريخ الحالية أصبح عديم الفائدة له ، وفيه كل النفع لموللر ..

سيموت كمريخ مافى هذا ريب .. ولا يهم بعد هذا من يستولى على الحذاء ، فلم لا يسعى موللر اذن لأخذه ؟ .. هو أحق به من خدم المستشفى .. واذا توفى كمريخ ضاعت الفرصة .. ومن هنـــا كان اهتمام موللر الزائد ورقابته الدائمة ..

اننا لم نعد نفكر فى الاعتبارات الاخرى لانها أصبحت فى نظرنا سطحية ثانوية .. ان الحقائق وحدها هى التى تعنينا وتهمنا .. والأحذية الجيدة شىء نادر فى الحروب ..

كان تفكيرنا مخالفا لهذا النمط فى الماضى ..

فحينما ذهبنا الى مكتب القائد المحلى للتطوع كنا فصلا كاملا أفراده شبان فى العشرين من أعمارهم ، وكثيرون منا تأنقوا فى حلاقة ذقونهم قبل الذهاب الى الثكنات للمرة الاولى ..

ولم تكن لنا فى ذلك الوقت خطة محددة فيما يختص بالمستقبل . وكانت أدمغتنا محشوة بأفكار غامضة كانت تسبغ على الحياة وعلى الحرب لونا خياليا صرفا .. فلما أمضينا فى الجيش عشرة أسابيع للتدريب اكتسبنا فى هذه المدة ما لم نكتسبه بدراسة عشر سنوات فى المدارس .. وعرفنا ان زرا لامعا هو أقوم من أربعة مجلدات من فلسفة شوبنهور .. وفهمنا ان ما يهم ليس هو العقل ، بل طلاء الحذاء .. وليس الذكاء ، بل النظام .. وليست الحرية ، بل التدريب العسكرى .. وصحيح اننا دهشنا أولا ، بل شعرنا بمرارة .

لكن انتهى بنا الامر الى الاستسلام وعدم المبالاة ..
صرنا جنودا متلهفين متحمسين .. لكنهم بذلوا كل جهد لاماتة هذه الاحساسات فى نفوسنا .. ولم نستغرب بعد ثلاثة أسابيع أن يكون ساعى بريد من السلطة علينا ما لم يكن لوالدينا ومدرسينا وثمار فلاسفتنا ..
كنا نتوهم أن يكون الحال غير هذا ، فاذا نحن نتدرب على الوطنية ، كما يدرب أفراد الملاعب ..
لكن سرعان ما ألفنا هذه الأطوار .. وتطبعنا بها ..

***

تفرق أفراد فصلنا المدرسى بين كافة « الطوابير » فى نواحى معسكر التدريب ، مع الصيادين والفلاحين والعمال وغيرهم .. وسرعان ما اندمجنا معا وصرنا أصدقاء ، وذهبنا نحن الاربعة كروب وموللر وكمريخ وأنا ، الى « الطابور » رقم ٩ تحت رئاسة الاونباشى هملستوس ..
كان هملستوس معروفا بأنه أشد المدربين صرامة فى المعسكر . وكان فخورا بهذه السمعة ..
كان قصير القامة ذا شارب مفتول ، خدم فى الجيش اثنى عشر عاما ، وكان يعمل قبل ذلك ساعى بريد ..
وكان ينقم خاصة على كروب وجادن وديستوس وعلى كاتب هذه السطور ، لأنه رآنا نتحداه تحديا هادئا صامتا .
ولذلك تعرضنا لسطوته وانتقامه .. ففى صباح أحد الأيام . نصبت فراشه أربع عشر مرة .. وكان فى كل مرة يجد عيبا جديدا يوجب تفكيك الفراش ونصبه من جديد ..
وفى مناسبة أخرى أمرنى أن ألين حذاء صلبا كالحديد من عهد ما قبل التاريخ .. فقضيت فى هذه المهمة عشرين ساعة تتخللها فترات بالطبع ، حتى أصبح الحذاء فى طراوة اللحم .
وفى مناسبة ثالثة أصدر الى أمره بكنس احدى الغرف بفرشاة اسنان ..
وفى مناسبة رابعة أمرنى وكروب برفع الجليد من فناء الثكنات بواسطة مكنسة وسلة .. فامتثلنا . وكان يمكن ان نجمد بردا لولا

مرور احد الضباط عفوا .. فأمرنا بالكف عن ذلك وانتهر هملستوس بشدة ..

لكن لم يكن لهذا من نتيجة سوى ان هملستوس اشتد مقته لنا .. فجعل دورى فى الحراسة يوم الاحد ومدة ستة أسابيع متوالية .. وكان يضطرنى أن ألبس ملابس الميدان كاملة وان أباشر فوق حقل مروى محروث تدريبات الهجوم والزحف ، حتى صرت أخيرا كتلة من الطين ، وتعثرت فسقطت فى الوحل .. ولم تكد تمضى أربع ساعات حتى كان على أن أتقدم الى هملستوس نظيف الثياب ، ففعلت . وذهبت اليه مخدوش الجلد دامى اليدين .

وذات يوم أمرت أنا وكروب وديستوس وجادن أن نقف الوقفة العسكرية المعروفة تحت وابل الصقيع الذى يهرأ الاجسام دون أن نحمل قفازات ، مدة ربع ساعة ، بينما كان هملستوس يراقب أقل حركة من أصابع أيدينا وهى مسمرة على خزان البنادق الفولاذى ..

وفى مناسبة أخرى أمرت ان أجرى ثمانى مرات من أعلى الثكنات الى الفناء فى الساعة الثانية صباحا وليس على سوى قميصى ، لأن ادراج دولابى برزت عن حدها المألوف بمقدار ثلاث بوصات .. وكان هملستوس يجرى بجانبى ويدوس بحذائه على قدمى العاريتين ..

وفى التدريب الخاص باستعمال « السونكيات » كان على أن أقاتل هملستوس دائما ، وكنت أحمل « سونكى » من الخشب الخفيف .. فكان ينهال به على ذراعى بدعوى التمرين حتى تورم لحمى واستحال لونه الى الزرقة الممزوجة بالسواد ..

والواقع انى لم أملك أعصابى مرة وهجمت عليه ولطمته لطمة عنيفة فى بطنه ، فأوقعته على الأرض .. ولما شكانى الى قائد الكتيبة ضحك منه ونصحه أن يتنبه فى المستقبل وأن يفتح عينيه . فقد كان القائد يفهم طبيعة هملستوس .. وتبين بجلاء انه ارتاح الى ما فعلته معه ..

على انى برعت فى الحركات العسكرية ولم أترك له مجالا للثأر منى . وصحيح اننا كنا نرتعد من مجرد سماع صوته .. لكنه لم ينتصر علينا فى يوم من الأيام ..

وفى يوم أحد ، بينما كنت أسير مع كروب حاملين دلوا من دلاء المراحيض معلقا فى حامل أمسكنا بطرفيه ، اذ مر بنا هملستوس

وقد تزين استعدادا للخروج .. فلما رآنا اعترض طريقنا ووقف امامنا وسألنا كيف نجد العمل فى الجيش .. فلم نتمالك برغمنا أن ارقنا الدلو فوق ساقيه ، عفوا بالطبع ..

هاج هملستوس ، وجن جنونه ، وصاح :

ـ ستذهبان الى السجن ..

لكن كروب لم يطق صبرا .. فأجابه :

ـ لابد أولا من تحقيق ..

فصرخ هملستوس فى وجهه :

ـ تدبر كيف تخاطب صف ضابط .. هل فقدت عقلك ؟ .. اسكت حتى تسأل ، ثم تتكلم بعد ذلك .. هل تدرى ماذا سيكون موقفك انت وزميلك ؟ ..

فأجاب كروب بهدوء :

ـ سنفضحك .. ونسرد اعمالك معنا ..

ادرك هملستوس اننا نعنى هذا الوعيد .. فسقط فى يده .. وابتعد عنا دون أن ينبس بكلمة .. على انه قال مزمجرا قبل أن يختفى :

ـ ستشربان من هذا ..

وبهذا الحادث انتهت سيطرة هملستوس علينا .. فقد امرنا مرة باجراء تمرينات الزحف والهجوم فى الحقل المروى المحروث .. لكننا اخذنا نقوم بالحركات فى تباطؤ وتؤدة حتى سقط فى يد هملستوس ..

كنا نركع على ركبنا باحتراس ، ثم نلمس الارض بأيدينا .. وفى أثناء ذلك كان الغضب يلهب صدر هملستوس فيصدر أمرا ثانيا .. وكانت النتيجة انه بح صوته تماما قبل أن نشعر بالتعب ويسيل عرقنا ..

ومن ذلك العهد تركنا هملستوس فى سلام .. وصحيح انه كان يلقبنا أحيانا بالخنازير .. لكن كانت نبرات صوته تشف عن التقدير والاحترام ..

وكان يوجد كثيرون من رتبة هملستوس .. لكنهم كانوا افضل منه نفسا .. على انهم جميعا كانوا يهتمون باظهار سطوتهم وسلطتهم . ولم يكن يتسنى لهم بلوغ هذه الغاية الا بين المتطوعين ..

وكنا نواصل التمرينات العسكرية فى ميدان التدريب ونمارس ألوانها المختلفة حتى يبلغ احتمالنا نهايته .. وكثيرون منا مرضوا ولزموا الفراش بسبب شدة التمرينات ، وتوفى زميل لنا يدعى رولف بالتهاب فى رئتيه ..

ومع ذلك فقد صرنا أصلب أعوادا وأقسى نفوسا واشد شراسة مما كنا ، وهذا ما كنا نحتاج اليه فى الواقع .. فلو أننا ذهبنا الى الخنادق بغير هذه التدريبات الصارمة لجن الكثيرون منا .

كانت فترة التدريب هى التى اعدتنا لما ينتظرنا .. ولم تنحل قوانا ، بل اندمجنا فى الحالة الجديدة ، وكان شبابنا خير معين لنا على الاحتمال والجلد .. وتولدت فى نفوسنا من هذه الظروف روح قوية كانت ابلغ ما أنتجتـه هـذه الحرب .. هى روح الصـداقة والزمالة ..

***

جلست قـرب فراش كمريخ .. كانت حالته تزداد سـوءا وانحطاطا ..

كان الهرج على اشده حولنا .. فقد وصل قطار خاص ، واخذ رجال المستشفى يختارون الجرحى الذين تدعو حالتهم الى نقلهم من ميدان القتال ..

ومر الطبيب قرب سرير كمريخ دون أن يلقى عليه نظرة واحدة .. فقلت له :

ـ سيكون دورك فى المرة التالية يا فرانز .

فاتكأ على مرفقيه ورفع نفسه وقال :

ـ انهم بتروا ساقى ..

عرف كمريخ الحقيقة .. فأومأت برأسى ايجابا وقلت له :

ـ يجب أن نشكر الله لوصولك الى هذه النتيجة .

سكت .. فاستطردت :

ـ كان يمكن أن تفقد ساقيك معا يا فرانز .. ان فجلر فقد ساعده الأيمن .. وهو أسوأ منك حالة .. وفوق هذا فانك ستذهب الى بيتك ..

نظر الى .. وقال :

ـ هل ترى هذا ؟ ..

ـ بالطبـع ..

وردد سؤاله :
ــ هل ترى هذا ؟ ..
ــ بالتأكيد يا فرانز .. ما دامت العملية نجحت .
فأشار الى أن أنحنى فوقه .. ففعلت .. وهمس :
ــ لا أظن ..
ــ لا تقل هذا الكلام يا فرانز .. سترى النتيجة بعينيك فى ظرف يومين .. وما الذى حدث لك ؟ .. ساق مبتورة .. انهم هنا يجرون عمليات أخطر من هذه ..
فرفع احدى يديه ، وقال :
ــ أنظر الى أصابعى ..
ــ هذه نتيجة العملية .. كل كفايتك .. وستتعافى قريبا .. هل يعنون بك العناية الكافية ؟ ..
فأشار الى طبق لا يزال مملوءا بالطعام .. فقلت بانفعال :
ــ لابد أن تأكل يا فرانز .. ان الأكل ضرورة لازمة .
فأدار رأسه .. ثم قال بتؤدة بعد صمت يسير :
ــ انى أردت يوما أن أكون ضابطا فى حرس الغابات ..
فقلت له فى لهجة التأكيد :
ــ ولا تزال الفرصة أمامك .. ان هناك أعضاء صناعية حتى لا يكاد الانسان يحس أن به شيئا ينقصه .. ويمكنك أن تحرك أصابعك ، وأن تعمل وأن تكتب بيد صناعية .. وفوق هذا فالآمال معقودة على ترقى هذه الفنون وتقدمها ..
فتمدد ساكنا بضع لحظات .. ثم قال :
ــ يمكنك أن تأخذ حذائى الى موللر ..
فأومأت برأسى وقد عجزت عن الكلام تشجيعا له ..
تهدلت شفتاه . واتسع فمه .. وبرزت أسنانه بيضاء كالجليد .. وذاب لحمه .. وبرزت جبهته وعظام وجنتيه .. وغارت عيناه .. ولن تنقضى ساعة حتى ينتهى ..
لم يكن أول مخلوق على هذه الحال .. لكننا نشأنا معا .. وهو ما يجعل للموقف طابعا آخر .
كنت أقتبس موضوعاته الانشائية .. وكان من أنجب زملائنا .. وكان كانتوريك فخورا به ..
نظرت الى حذائى .. كان ضخما مضحكا .. وكان « التزلك »

نندس تحت حافتيه .. ومتى وقفنا بدا للناظرين أننا أقوياء شداد الأجسام .. لكن ما نكاد نذهب للاستحمام ونخلع ملابسنا وأحذيتنا حتى تبدو أقدامنا نحيلة وأكتافنا ضئيلة ..

لم تكن تظهر علينا هيئة الجند فى ذلك الموقف ، بل نكون أقرب الى الغلمان .. ولو رآنا أحد كذلك ما صدق اننا نقوى على حمل عتاد الجنود ..

كان منظرنا حينما نتجرد يدعو الى العجب .. وكان فرانز كمريخ اذا شرع فى الاستحمام بدا نحيلا هزيلا كالطفل ..

وها هو ذا الآن راقد ممدد ..

ما أجدر العالم كله أن يطوف الآن بهذا الفراش ويقول : « هذا هو فرانز كمريخ .. فى العشرين من عمره .. لا يريد أن يموت .. لينقذه الله » .

اضطربت أفكارى .. وكان الجو الذى يحوطنى يخنق الانفاس بروائحه الثقيلة ..

ساد الظلام .. ورفع كمريخ رأسه من فوق الوسادة وقد لمع وجهه الممتقع .. واختلج فمه بحركة يسيرة .. فدنوت منه .. فهمس :

ـ اذا وجدت ساعتى .. فأرسلها الى امى .

لم أجب .. كان من العبث أن أتكلم .. فليس من سبيل الى مواساته ..

هنا وجه غائر الوجنتين .. وفم مكشوف الاسنان .. وأنف شديد البروز ..

وهناك أم باكية ثكلى لابد أن أكتب اليها ..

فما أهول هذه المهمة .. ليتنى أتممتها من قبل ..

كان خدم المستشفى يروحون ويجيئون حاملين الزجاجات والاربطة .. وجاء أحدهم الى ناحية السرير وألقى نظرة على كمريخ دون أن يقول شيئا .. ففهمت انه ينتظر اخلاء السرير .

انحنيت فوقه واخذت أكلمه كأنما كان الكلام ينقذه من مصيره فقلت له :

ـ ربما ذهبت يا فرانز الى مستشفى النقاهة فى بلدتنا « كلوستربرج » حيث تشرف من نافذتك على الحقول النضرة والاشجار الفارعة .. نحن الآن فى أجمل فصول الطبيعة ، وقد بدات

سنابل الحنطة فى النضج .. وفى الليل تبدو المروج فى ضوء القمر الساجى متلألأة باهرة .. وهناك يمكنك صيد الفراش والاسماك والتنزه فى هذا الجو الساحر ..

وانحنيت فوق وجهه المحتجب فى الظـــلام .. فألفيته لا يزال يتنفس .. لكن وجهه كان مبللا .. فقد كان يبكى .

قصدت أن أشجعه بكلماتى الحمقاء .. فاذا هى تثير شـــجونه ولوعته ..

وضعت ذراعى حول منكبه ، وألصقت وجهى بوجهه ، وقلت له :

ــ لكن يا فرانز .. يجب أن تنام الآن .

لم يجب .. وأخذت الدموع تسيل فوق وجنتيه ، واردت ان اكفكفها بمنديلى .. لكنه كان شديد القذارة ..

مرت ساعة .. ولم أتحرك من مكانى حيث اخذت اراقب حركاته وأنتظر منه كلاما .. لـكنه لم يفعل .. بل كان يبكى ، وقد حول وجهه عنى ..

لم يتكلم عن امه وعن اخوته وأخواته ، لم يقل شيئا ، فقد اعار كل هذا ظهره .. وهو الآن وحده امام حياته التى لم تجاوز العشرين يبكى لأنها تفارقه ..

لم أر فى حياتى أهول ولا أرهب من هذا الوداع .. وان كان هناك موقف رهيب آخر رايت فيه « تيدجن » ينـــادى أمه نداءا وحشيا مخيفا ، وقد انتصب فى سريره جاحظ العينين رعبا ، وأبعد الطبيب عنه بخنجر فى يده ، وبقى هكذا حتى هوى وفارق الحياة .

وفجأة أخذ كمريخ يتأوه ويحشرج ..

وثبت من مكانى .. وسرت متعثرا وانا أهتف :

ــ أين الطبيب ؟ .. اين الطبيب ؟ ..

رايت طبيبا .. فتشبثت به وهتفت :

ــ أسرع .. فرانز كمريخ يموت ..

تخلص الطبيب منى وسأل ممرضا بقربه :

ــ اين هذا ؟ ..

فأجاب الممرض :

ــ سرير رقم ٢٦ .. فخذ مبتور .

قال الطبيب :

ــ كيف اتذكره ؟ .. انى بترت خمس سيقان اليوم .

ثم أبعدنى من طريقه وهو يقول للممرض :
ـ اذهب انت اليه ..
ثم أسرع الى غرفة العمليات ..
ارتجفت غضبا .. وسرت مع الممرض الذى نظر الى وقال :
ـ عمليات متصلة منذ الفجـــر .. وبلغت الوفيات اليوم ١٦ وصاحبك هو السابع عشر .. ومن المرجح أن يصل الرقم الى ٢٠ قبل نهاية اليوم ..
كاد يغمى على .. ولم أقو على شيء .. وكان من العبث أن ألوم أحدا .. ولو استسلمت لشعورى لهـويت على الارض ولم أنهض ابدا ..
دنونا من فراش كمريخ .
رأيته فارق الحياة ، وكان محياه لم يزل مبللا بدموعه .. وعيناه نصف مفتوحتين ..
سألنى الممرض :
ـ هل تأخذ معك أدواته ؟ ..
اومأت برأسى ايجابا .. فاستطرد :
ـ لابد من نقله فى الحال .. فنحن فى حاجة الى السرير .. هناك جرحى راقدون على الارض فى الخارج .
حملت أدوات كمريخ ، وانصرفت ، وما كدت ابتعد حتى كانوا ينقلون فرانز فوق رقعة من المشمع ..
وجدت فى الظلام وفى الهـــواء خارج المستشفى مفرجا لأزمتى النفسية . ورحت أتنفس ملء رئتى وأتحسس النسيم فى وجهى بحالة لم أعهدها من قبل فى حياتى .. وأخذت صور الفتيات والمروج المزهرة تظهر فجأة فى مخيلتى ، وأحسست بحـــافز فى قـدمى فأسرعت فى سيرى ، ورحت أركض .. وكان الجنود يمرون بى .. وأسمع أصواتهم دون أفقـــه كلامهم . وكانت الارض مملوءة حيوية وقوة أخذت تتدفق فى جسدى من خـلال قـدمى .. وكان قصف المدافع يصدر من بعيد كأنه دق طبول متناسقة ..
كانت أطرافى تتحرك بنشاط ، وعضلات جسدى تشتد وتقوى . وأخذت أتنفس بلهفة وشغف ..
كان الليل حافلا بالحياة ، فدبت فى حياته .. واحسست بجوع

أشد من جوع البطن وحدها .. هو الجوع الى الحيـــاة والتلهف عليها ..

ألفيت موللر واقفا أمام الكوخ ينتظرنى .. فأعطيته الحذاء .. ودخلنا معا .. ولمـا جربه طابقه تماما .

دس موللر يده فى أدواته وقدم الى قطعة سجق محشوة بالمخ .. وتلاها قدح من الشاى الحار والروم الدافىء .

الفصل الثالث

وصلت الامدادات .. وسدت الثغرات التى تكبدتها الكتيبة .. واحتل الزملاء الجدد أكياس القش التى كانت خالية فى الاكواخ .. وكان معهم جنود قدماء .. لـكن جاء بينهم خمسة وعشرون فى السابعة والثامنة عشرة من أعمارهم .. واشار اليهم كروب قائلا :

ـ هل رأيت الأطفال ؟ ..

فأومأت برأسى ايجابا ..

حلقنا ذقوننا فى الهواء الطلق ووضعنا أيدينا فى جيوبنا ، واخذنا نتفقد المتطوعين الجدد ونحن نشعر بأننا قد سبقناهم خبرة ومرانا .

وانضم الينا كات .. فذهبنا الى حيث كان القادمون يزودون بالكمامات ويمونون بالقهوة .. وسأل كات احد الشبان الصغار :

ـ ألم تأكل أكلا طيبا منذ زمن طويل ؟ ..

فقال الفتى وقد قطب وجهه :

ـ « لفت » فى الافطار وفى الغذاء وفى العشاء .

فهز كات رأسه هزة العارف الخبير وقال :

ـ أنت سعيد الحظ برغم هذا .. لكن ما رايك فى « الفاصوليا » هل تريد شيئا منها ؟ ..

ـ لعلك لا تسخر منى ! ..

فقال كات :

ـ هات اناءك ..

وتبعنا كات بفضول ، فذهب بنا الى اناء كبير موضوع قرب فراشه ممتلىء الى منتصفه بالفاصوليا .. ووقف كات أمام الاناء كالقـائد المظفر ..

دهشنا .. ولم أتمالك ان سألته :

ـ يا للشيطان .. كيف توصلت الى هذا ؟ ..

ـ أن جينجر اعطانيه فى مقابل ثلاث قطع من حرير الصواريخ المعلقة .. ان الفاصوليا الباردة لذيذة الطعم .

ومنح كات الفتى شيئا من الفاصوليا وقال له :
ــ اذا جئت فى المرة الثانية ومعك اناؤك ، فليكن معك سيجارة فى اليد الاخرى ..
ثم التفت الينا واستطرد :
ــ اما أنتم فعلى الرحب والسعة بالطبع .

***

لم نكن نستغنى عن كات .. فان له حاسة سادسة ..
كان كات يعمل كاسكاف قبل الانضمام الى الجيش ، لكنه خبير بكافة أنواع الحرف ، ينتفع الانسان بمصادقته ، وكانت علاقات الصداقة بيننا أنا وكروب وبينه على أوثقها .. وكان هاى ديستوس يلينا فى الفوز بصداقته .. لكن ديستوس كان ساعد كات وذراعه المنفذة ..
وذات ليلة وصلنا الى بقعة مقفرة ، وآوينا الى مصنع مهجور كانت به أسرة هى عارضتان من الخشب بينهما شبكة من سلك يتعذر النوم فوقها ..
وما كاد كات يرى استحالة النوم فى هذا المكان حتى طلب الى ديستوس أن يتبعه ، وذهب كلاهما للكشف والاستطلاع ، وبعد نصف ساعة عادا الينا حاملين قشا كثيرا ، فقد وجد كات مأوى جواد مملوءا بهذا القش ولم يتردد فى حمله الينا .
كان يمكن أن ننام بعد ذلك ، لولا ان بطوننا كانت تصرخ جوعا .
والتفت كات الى أحد جنود المدفعية الذى أقام مدة فى تلك الجهة ، وسأله :
ــ هل يوجد « كانتين » قريب من هنا ؟ ..
فضحك الجندى .. وقال :
ــ « كانتين » سامحك الله . لا شيء هنا بتاتا . واذا اهتديت الى لقمة واحدة فأنت سعيد الحظ حقا .
ــ الا يوجد اذن سكان هنا ؟ ..
فأجاب الجندى وهو يبصق :
ــ نعم .. سكان قليلون ، لكنهم يحومون حول مطبخ الجيش ويتسولون ..
ــ هذا موقف سيىء .. اذن ليس امامنا الا ان نشد الأحزمة حول بطوننا وننتظر حتى الصباح .

على انى رأيت كات يضع قلنسوته على رأسه . فسألته :
ـ الى أين يا كات ؟ ..
فقال وهو يخرج :
ـ سأذهب لاستكشاف المكان .
وقال الجندى وهو يبتسم ساخرا :
ـ اذهب واستكشف .. لكن لا تجهد نفسك فى حمل ما تجده .
تمددنا متألمين ، وفكرنا فى القيام بحملة على مخزن المؤونة .. لكنها تكون مجازفة خطيرة ، ولذلك رحنا نعالج النوم .
شطر كروب سيجارة وأعطانى نصفها ، وأخذ جادن يصف الطبق الذى يفضله فى البيت ، لكن صوتا منا ارتفع وقرر أنه سيحطم فك كروب اذا لم يسكت ..
وعلى اثر ذلك ساد السكون فى الغرفة الرحبة ، ولم يكن يعكره سوى صوت جندى المدفعية وهو يبصق بين وقت وآخر .
وفيما نحن بين النوم واليقظة فتح الباب وظهر كات .
فخيل الى انى أحلم .. فقد رأيت كات حاملا تحت ابطه رغيفين وكيسا مملوءا بلحم الخيل يقطر الدم منه ! ..
واخذ جندى المدفعية يتحسس الخبز بيده ويقول :
ـ رباه ! .. خبز حقيقى ! .. وساخن أيضا ! ..
ولم يشأ كات أن يفسر لنا ما حدث .. فكل ما يهم أنه أحضر الخبز .. وقال مخاطبا ديستوس بايجاز :
ـ اقطع بعض الخشب ..
ثم أخرج كات من تحت سترته مقلاة ، ومن جيبه حفنة من الملح وقطعة من الشحم .. كان بعيد النظر لم يفرط فى شىء ! .. وسرعان ما أوقد ديستوس نارا على الارض .. فأضاءت الغرفة الخاوية .. وفى اللحظة التالية غادرنا أسرتنا .. ولم ننم تلك الليلة حتى كانت بطوننا مكتظة ..
هذا هو كات .. يذهب الى مكان الاكل بوحى الغريزة .. ويسير اليها رأسا كأنما يتبع بوصلة تحدد طريقه ..

***

جلسنا خارج الكوخ نتجاذب أطراف الاحاديث .. وجلس كات بجانبى .. وراح كروب يتمشى حولنا حافى القدمين بعد أن غسل جوربه ونشره على الحشاش حتى يجف .

وأخذ الاثنان يتناقشان .. وفي نفس الوقت تراهنا بزجاجة جعة نتيجة معركة جوية كانت تدور فوق رءوسنا .

وكان الرأى الذى أبداه كروب يستحق التسجيل .. فهو يرى ان اعلان الحرب يجب أن يتخذ صبغة الحفلات الشعبية التى يخصص لها رسم دخول وتصدح فيها الموسيقى ، كحفلة مصارعة الثيران مثلا .

ثم يتلاقى وزراء الدولتين المتحاربتين وقوادهما فى الساحة العامة مرتدين ملابس المصارعة ، وممسكين بأيديهم هراوات ، ويتولون تسوية النزاع فيما بينهم .. ومن يعش من الفريقين المتصارعين تكن الغلبة والانتصار لدولته . وهذه طريقة أبسط وأكثر مطابقة لروح العدالة من الاجراءات الحالية ، التى يحمل فيها أفراد الشعب المظلومون عبء القتال ويستهدفون لخسائره .

وتغير مجرى الحديث بعد ذلك .. وفجأة ضحك كروب وقال :

ــ تغيير فى « لوهن » ! ..

كان هذا النداء هو اسم اللعبة المحبوبة عند هملستوس «أونباشى» فرقتنا الهمام .. وله قصة لا بأس من سردها .

كانت « لوهن » نقطة تتقاطع عندها خطوط السكك الحديدية .. ولكن لا يضل زملاؤنا الذاهبون فى أجازة طريقهم فى هذه المحطة أخذ هملستوس على عاتقه أن يمرننا على كيفية التغيير فى عنبر الثكنات . وكان لابد للمسافر كى يصل الى خط السكة الحديدية الفرعى فى محطة لوهن أن يجتاز نفقا تحت الارض .. ولذلك مثل هملستوس الاسرة بالنفق المشار اليه ، وكان كل واحد منا يقف الى يسار سريره على تمام الاستعداد والانتباه .. وما هو الا أن يرتفع صوت هملستوس بهذا النداء : « تغيير فى لوهن ! » ، حتى يتسلل كل جندى تحت سريره بسرعة البرق ، ويصل الى الجانب الآخر .. وكنا نقوم بهذا التدريب ساعات كاملة .

وفى هذه الاثناء هزمت الطائرة الالمانية .. وهوت فى الفضاء تجر أذيالها دخانا مستطيلا . وبذلك خسر كروب الرهان . واخذ يحصى نقوده فى تذمر واستياء ..

وقلت أخيرا بعد أن خف استياء كروب :

ــ من المؤكد ان هملستوس كان شخصا مختلفا فى اطواره واخلاقه

عن حالته الراهنة وقت ان كان ساعي بريد .. وما دام الامر كذلك ، فمن أين جاءه هذا الطغيان وهو يقوم الآن بدور « أونباشى » فى التدريب ؟ ..

أثار هذا السؤال اهتمام كروب ، ولا سيما حين علم أنه لا يوجد فى « الكانتين » زجاجة جعة يفى بها حق الرهان ، وقال :

– ليس هملستوس وحده هو الذى تطور هذا التطور .. فهناك عشرات مثله .. انهم لا يكادون يفوزون بشريط أو نجمة مذهبة حتى يتغيروا تغييرا كليا .

فقلت : هى السترة الرسمية التى تزدهيهم .

فقال كات : هو ما تقول .. لكن هناك سببا آخر .. هو السلطة المطلقة التى تتدرج فى نظام جيشنا .. ولابد لكل رجل فى الجيش أن يتسلط على الآخر .. فالضابط يتسلط على الصول ، وهذا يتسلط على من هم دونه ، وهكذا .. ووجود هذه السلطة هو الذى يبث الزهو فى النفوس ويغريها بالشطط والاسراف فى استخدامها .. لكن هذا النظام لا يوجد الا عندنا .. ولو أراد أن يطبقه فى المهن الاخرى للقى ما لا يحمد .. وكلما كان الانسان خاملا فى حياته المدنية كلما اشتد ظهور هذه الظاهرة اذا التحق بجيشنا .

فقال كروب مفكرا :

لكن يقولون ان دواعى النظام هى التى تدعو الى وجود هذه الظاهرة ..

فقال كات متذمرا :

– صحيح .. بيد أنه يجب ألا يساء استخدام هذه السلطة حتى تصبح مسبة .

لم يعترض احد .. وفى هذه اللحظة جاء جادن مورد الوجه لاهث الأنفاس .. وقال وقد أشرق وجهه :

– ان هملستوس فى طريقه الى هنا .. هو آت الى الميدان ..

***

كان مقررا أن نذهب الى ميدان القتال فى فجر اليوم التالى . ولذلك اتفقنا على أن نصفى حسابنا مع هملستوس هذا المساء .

والواقع اننا قد أقسمنا منذ اسابيع أن نقوم بهذه الخطوة . بل ان كروب اقترح أن يلتحق بخدمة البريد بعد انتهاء الحرب حتى

يصبح رئيس هملستوس حينما يعود ساعى بريد كما كان ، فيذيقه العذاب ويسحقه سحقا .

كنا نعرف الحانة التى يزورها هملستوس كل ليلة . وكان يعود منها الى الثكنات فى طريق مقفر مظلم .

وفى هذا الطريق انتظرنا فى الظلام خلف كوم من الاحجار . وكنت أحمل معى غطاء سرير .. وجعلنا ندعو الله أن يعود هملستوس وحده .

وفجأة سمعنا وقع اقدامه التى نعرفها جيدا ، منذ أن كان يدفع الباب علينا كل صباح صارخا : « انهضوا ! » ..

همس كروب : هو وحده ؟ ..

فتسللت حول كوم الأحجار مع جادن .. وكان هملستوس يسير فى نشوة ظاهرة وقد اخذ يغنى ، ولم يكن يرتاب فى شيء .

أمسكنا بالغطاء ، ووثبنا وثبة سريعة ، وطرحناه فوق رأس هملستوس وجذبنا أطرافه ، وهكذا وقف فى كيس أبيض ، عاجزا عن تحريك ذراعيه ..

انقطع الغناء . وفى اللحظة التالية أسرع ديستوس الى جانبنا ، ودفعنا عنه حتى يثأر لنفسه اولا . ثم وقف وقفة بديعة وقد ظهرت عليه دلائل الرضاء والارتياح ، ورفع ذراعه ، وصوب الى هملستوس ضربة قوية ..

فسقط هملستوس على الارض ، وتدحرج بضعة امتار ، واخذ يصرخ . لكننا تأهبنا لذلك ، واحضرنا معنا وسادة من الثكنات . وجذب رأس هملستوس ودسه فى الوسادة ، فانقطع صراخه ..

وأسرع جادن بدوره وفك حزام هملستوس وجذب بنطلونه ، ثم وقف ، واخذ يجلده بالحزام .

كان مشهدا عجيبا . فقد تمدد هملستوس على الارض ، وانحنى ديستوس فوقه وهو يبتسم ابتسامة جهنمية ، واندس رأس هملستوس فى حجره . وأخذ جادن ينهال عليه بالضرب وهو لا يكل ولا يمل حتى اضطررنا اخيرا لابعاده عنه لكى يأخذ كل منا نصيبه ..

واخيرا أوقف ديستوس هملستوس على قدميه ، وصوب اليه ضربة قوية ، فهوى الى الارض ..

ثم أنهضه ثانية ووجه اليه بيده الثانية ضربة رائعــة . فصرخ هملستوس وهوى زاحفا على يديه وقدميه .

وسرعان ما تركنا ميدان المعركة واختفينا عن الانظار .

كان يجدر بمدربنا هملستوس أن يسر بهذا الحادث .. فقــد طالما كان يقول لنا انه يجب على كل واحد منا أن يعلم زميله ، وها قد أثمرت نصيحته .. وكنا عند حسن ظنه .. وطبقنا طريقته معنــا بحذق .. وكنا تلامذته النجباء .

ولم يستطع هملستوس أن يعرف أبدا من داعبه هذه المداعبة القاسية .. على انه خرج منها بفطاء سرير .. فاننا حينما رجعنا بعد بضع ساعات للبحث عنه لم نجد له اثرا .

والواقع ان هذه المداعبة شددت عزائمنا . وكان لهــا تأثير طيب فى نفوسنا حينما ارتحلنا الى الميدان فى صباح اليوم التالى .

الفصل الرابع

تقرر ان نذهب لمد الاسلاك الشائكة .. وجاءت « اللوريات » بعد حلول الظلام .. فصعدنا اليها .. ووقفنا فيها على اقدامنا جنبا لجنب لعدم توفر الفراغ الكافى للجلوس .. وكان موللر شديد الارتياح لارتداء حذائه الجديد .

وعلت أصوات المحركات وسارت « اللوريات » فى الظــــلام تتخبط بنا فى الطرق الرديئة المملوءة بالحفر .. ولم نجرؤ على اظهار الانوار حتى لا نستهدف لقنابل الطائرات ..

وكانت سيارات الذخيرة تسير محاذية لنا فى خط طويل .. ورحنا نتبادل مع ركابها النكات والمداعبات ..

وفيما نحن نسير رأينا من خلال الظلام جدار منزل على جانب الطريق .. وفجأة سمعت صوتا اذهلنى .. هو صوت أوزة ! .. فهل خدعتنى حواسى ؟ ..

تكررت الصوت بوضوح ولم يبق شك فى نفسى .. فتبادلت النظر مع كات .. وفهم كلانا صاحبه .

فقلت له : كات .. هناك مادة صالحة للمقلاة !

فأومأ كات برأسه وأجاب :

ـ سنهتم بها حينما نعود .. انى أحصيت عددها .

ووصلنا الى خطوط المدفعية ، حيث كانت البطاريات محجوبة بين الشجيرات تلافيا لرؤيتها من الجو .

وكان الهواء مشبعا بدخان المدافع وبالضباب . وسحب البارود تنفذ الى الفم وتلذع اللسان . وكانت المدافع تقصف بعنف شديد حتى اهتز اللورى الثقيل الذى يحملنا . وكذلك الاصداء تتجاوب خلفنا وتزلزل كل شىء .

وظهر تأثير هذا المحيط فى وجوهنا .. صحيح اننا لم نصل بعد الى ميدان القتال .. وكنا فقط فى الخطوط الخلفية . لكن كان ميسورا ان يطالع الانسان على وجوهنا هذه العبارة :

« هنا الميدان .. ونحن الآن في احضانه » .

***

لم يكن هذا الاحساس من قبيل الخوف .. فان مثلنا ممن ترددوا على ميدان القتال مرات قد غلظت جلودهم وتحجرت قلوبهم .. ولم يكن بيننا من ساوره الانفعال سوى المتطوعين الجدد .. وأخذ كات يشرح لهم ما يدور ، فقال :

ـ هذا مدفع عيار ١٢ بوصة .. ويمكن تمييز صوته من دويه . وستسمعون الآن قصفه .

لكن قصف المدفع لم يصل الى أسماعنا .. فقد تلاشى صوته في دوى الميدان الشامل .. وقال كات بعد أن أرهف سمعه :

ـ سيمطرنا العدو بالقنابل هذه الليلة .

فأنصتنا جميعا .. كان صوت انفجار القنابل يسمع بوضوح صادرا من البطارية الانجليزية الى يميننا .. وقد بدأوا حملتهم هذه الليلة قبل الموعد المعتاد بساعة . فقد كانوا يواظبون على العمل ابتداء من الساعة العاشرة .

وقال موللر : ماذا جرى لهم ؟ .. لابد أن ساعاتهم اختلت ! ..

فقال كات وهو يهز كتفيه :

ـ سيمطروننا بالقنابل كما قلت لكم .. انني أكاد أحس بهذا في أعماق نفسي .

***

فتحت المدافع أفواهها قربنا .. فاندلعت ألسنة النيران تشق سحب الضباب .. وتعالى قصف شديد .. فسرت في اجسادنا رعدة .. وحمدنا الله على اننا سنعود الى اكواخنا في الفجر .

ولم تكن وجوهنا ممتقعة ولا شاحبة .. ومع هذا فقد كان التغيير ظاهرا فيها بجلاء .. وكنا نحس كأن سيالا كهربائيا يسرى في دمائنا .. وليس هذا الكلام من قبيل الاستعارة أو التنميق . فان مجرد وجود الانسان بين احضان ميدان القتال يحدث فيه هذه الهزة الكهربائية .. ولا تكاد طلائع القنابل تصفر في الهواء ويدوى صوت انفجارها حتى تكون كتلة مرهفة من الاعصاب والحواس ، وحتى ينتقل الجسد كله في طرفة عين الى حالة غريبة من اليقظة والترقب والانتظار والاستعداد .

والواقع اننا كنا نقصد الى الميدان كل مرة في حالة عادية تختلف

بين المرح والاكتئاب .. على اننا لا نكاد نسمع قصف المدافع وانفجار القنابل حتى تعترينا حالة جديدة .. وتكتسب الكلمات فى افهامنا رنات جديدة مماثلة .

ولو قال كات عبارته السابقة فى الكوخ ما اهتم بها أحد .. أما هنا فكان لها فى أسماعنا وأفكارنا وقع المدية الحادة . وأحسسنا فى أعماقنا برعدة عنيفة قاتلة .

***

ان ميدان القتال فى نظرى هو (دوامة) غامضة .. ومع انى لم ازل مع زملائى بعيدين عن قلبه ، فانى أحس بأن تياره يمتصنى رويدا ويجذبنى اليه بلا رحمة ولا هوادة .

والجندى فى الميدان يستمد القوة والجلد من الهواء والارض .. والواقع أن الارض على الخصوص فى نظر الجندى هى كل شىء . فهى منه بمثابة الصديق والأخ والأم حينما يتمدد فوقها ويحتضنها ، وحينما يدفن وجهه وأطرافه فى طياتها خوفا من الموت بنيران القنابل وشظاياها . وفى سكونها وصدرها الأمين يدفن رعبه ويكتم صرخاته .. وهى تهيىء له ثوانى معدودات تحميه فى أثنائها ريثما يجرى وينجو بحياته .. أو تقبره فى طياتها الى الابد .

ولا يكاد صفير القنبلة يشق الفضاء حتى يعـــود الانسان آلاف السنين الى الوراء .. فان الغريزة الحيوانية المندسة فى طبائعنـا تتيقظ فجأة وتحمينا من الهلاك .. وليست هذه الغريزة هى الوعى .. بل هى حاسة أشد وأرهف ادراكا . ومحال أن يصل الانسان الى تفسيرها ، فان الجندى يسير فى طريقه بلا تفكير ولا انتباه .. وفجأة يرتمى على الارض .. واذا عاصفة من الشظايا تتطاير فوقه وحوله دون أن تمسه بأذى .. وهو مع ذلك لا يذكر انه سمع صوت مرور القنبلة وفكر فى القاء نفسه على الارض .. لكنه لو لم يستجب لهذا الحافز الخفى الذاتى لاستحال فى لحظـــة كتلة مختلطة من اللحم .. فالذى ألقانا على الارض وانقذنا من الهلاك هو تلك البصيرة الداخلية فى نفوسنا .. ولولاها ما عاش انسان وطئت قدماه ميدان القتال .

واستأنفنا التقدم بين متفائل أو متشائم .. حتى وصلنا الى المنطقة التى يبدأ منها الميدان .. واستحلنا فى لحظة الى حيوانات بشرية .

قابلتنا فى الطريق غابة مجدبة .. ومررنا بمطبخ الميدان .. وأخذنا نتقدم فى ظلال الغابة .. وعادت اللوريات الى الخطوط الخلفية على أن ترتد الينا فى الفجر لنقلنا الى الاكواخ .

وكان الضباب ودخان المدافع ينشر سحابة عالية فوق الارض . وأخذت الفصائل تتقدم فى الطريق وقد لمعت خوذاتها فى ضوء القمر الفضى ..

وكنا نسير الى الخنادق الامامية . وحمل بعضنا فـوق الاكتاف قضبانا حديدية حادة أو ملتوية فى أطرافها .. وكان آخرون يضعون قضبانا ملساء فى لفائف من الاسلاك ويدحرجونها على الارض لثقلها وصعوبة حملها .

اشتدت وعورة الطريق .. وكنا نسمع بين وقت وآخر أصواتا تصدر من الأمام تحذرنا من الحفـــــر والاخاديد التى أحدثتهــا القنابل ..

جعلنا نخترق الظلام بأنظـــارنا .. ونتحسس الارض بالاقدام والقضبان قبل التقدم الى الامام .. وفجأة وقف (الطابور) .. واصطدم وجهى فى لفة السلك التى يحملهـــا السائر أمامى .. فشتمت ولعنت ..

ودنونا من الميدان .. وصدرت الاوامر باطفاء السجائر .

وفى هذه الاثناء تكاثف الظلام .. ودرنا حول غابة صغيرة .. فاذا الميدان أمامنا مباشرة ..

***

كان وهج أحمر متقطـع ينتشر على امتـــداد الافق .. وهــو حركة دائمة مصدرها اللهب المتصاعد من أفواه المدافع .. وبين وقت وآخر كانت الصواريخ الفرنسية ترتفع فى الفضاء .. وهى عبــارة عن مظلات من الحرير تسبح فى الفضـــاء وتضىء كل شىء حتى ليستحيل الليل الى نهار ، وتبقى معلقة نحو دقيقة ثم يخبو ضوؤها الساطع ويتفرق فى مطر النجوم الحمراء والبيضاء والخضراء .. ثم يسود الظلام .

دوى قصف المدافع جملة واحدة كهزيم الرعد .. ثم تفرقت الأصوات واخذت المدافع تنطلق فرادى . وكانت القنابل الصغيرة تشق الفضاء سريعة متلاحقة ولها صفير وعجيج .. ومن خلفهـــا

المدافع الثقيلة يتموج دويها عميقا بعيدا كأنه زلزال رهيب فى بطن الأرض ..

وأخذت الأنوار الكاشفة تجتاح أديم السماء .. ثم وقف أحدها وتردد لحظة .. وانضم اليه ثان .. وانحصرت بينهما حشرة سوداء حاولت الافلات .. هى طائرة .. وما هى الا ثوان معدودات حتى تدهورت وأخذت تهوى على الأرض ..

***

أخذنا نغرس القضبان فى الارض على مسافات متساوية . وراح آخرون يبسطون لفائف الاسلاك ويشدونها الى القضبان . وكانت هذه الاسلاك من نوع مخيف خطر ..

وفرغنا من هذه العملية بعد بضع ساعات . لكن لابد من مرور ساعات أخرى قبل وصول اللوريات . ولذلك تمدد أغلبنا على الارض ونام . وحاولت بدورى ان اقتدى بهم . غير أن اشتداد البرد طرد النوم من عينى ..

على انى نمت أخيرا . ثم استيقظت فجأة منتفضا دون أن أعرف أين أنا . ورأيت نجوم الصواريخ تضىء الفضاء حتى خيل الى انى فى احدى الحفلات العامة . واقترنت بدورى انفجار قريب .

ورأيت شبح كات جالسا قربى بهدوء يدخن غليونه المفطى .. ولما رآنى استيقظت قال لى :

ــ لعلك فزعت من هذا الانفجار القريب . ان القنبلة استقرت فى الغابة المجاورة لنا .

فجلست . وأحسست بوحشة غريبة . ومن حسن الحظ أن كات كان قربى .. وراح يحدق مفكرا فى فضاء الميدان ، ثم قال :

ــ هذه مقذوفات رائعة تشبه الالعاب النارية ، لولا انها خطرة !

وانفجرت قنبلة خلفنا .. فوثب بعض المتطوعين الجدد فزعا . وما هى الا دقائق حتى انفجرت قنبلة ثانية فى مسافة أقرب . فنفض كات غليونه وقال :

ــ بدأ الجد ..

جد الجد حقا .. وانهالت القنابل كالمطر . فأخذنا نزحف بأقصى ما يمكن من السرعة .. وانفجرت احداها بيننا . فصرع جنديان .. وكانت الصواريخ تشق الظلام .. وأخذ الوحل يتناثر ، والشظايا

تتطاير كالسهام .. وما فتىء قصف المدافع يدوى بين انفجار القنابل .
ورأيت قريبا منى متطوعا حديثا استولى عليه رعب شديد .. ودس وجهه بين يديه وسقطت خوذته .. فتناولتها بسرعة وحاولت أن أعيدها الى رأسه ..
فتطلع الفتى الى .. ودفع الخوذة .. وانسل تحت أبطى كالطفل وأخفى رأسه الى صدرى .. وأخذ صدره يعلو ويهبط بسرعة .. وكان نحيلا فى قوام زميلى كمريخ المرحوم .. فتركته يفعل .. ووضعت الخوذة فوق عجزه ، لا من قبيل المزاح ، ولكن صونا لهذا الجزء الذى هو أكثر أجزاء الجسم ارتفاعا ، والاصابة فيه أشد ايلاما ..
وأصابت الشظايا أحد الزملاء اصابة خطرة .. فتصاعدت صرخاته بين دوى الانفجار .
وساد الهدوء أخيرا .. وابتعدت المقذوفات عن مكاننا وأخذت تسقط فى الصفوف الخلفية .
جلست فى مكانى وهززت كتفى المتطوع الصغير قائلا :
ــ انتهى يا بنى ! .. نجونا هذه المرة ! ..
ونظر الفتى حوله مشدوها . فقلت له :
ــ ستألف هذا قريبا ..
ورأى خوذته ووضعها على رأسه . وعاد الى رشده تدريجيا .. وفجأة تورد وجهه وبدت عليه دلائل الاضطراب .. وأخذ يمد يده باحتراس الى عجزه ، وينظر الى مرتاعا .
فهمت فى الحال .. هذا تأثير المدافع .
فقلت له مطمئنا : ليس فى هذا ما يدعو الى الخجل .. ان كثيرين قبلك امتلأت بنطلوناتهم بعد الغارة الاولى .. اذهب الى هذه الغابة وانزع بنطلونك .. اسرع ؟ ..

***

ذهب الفتى ... وانقطع القاء القنابل . لكن الصرخات لم تنقطع .. فقلت :
ــ ماذا جرى يا ألبرت ؟ ..
ــ ان بعض الزملاء هناك أصيب اصابات قاتلة ...
واستمرت الصرخات . ولم تكن أصواتا آدمية . فان الانسان

لا يصرخ بمثل هذه الوحشية .. وقال كات أخيرا :
– خيل مجروحة ...
كان الصراخ هائلا مفعما بالألم والعذاب يصم الآذان .. فامتقعت وجوهنا .. ولم يتمالك ديترنج ان نهض قائلا :
– رباه ! .. أطلقوا النار عليها ! ..
كان ديترنج فلاحا يحب الجياد ويشفق عليها .. فلم تستطع أعصابه احتمال صراخها .. لكن الصوت كان يأتى من كل مكان .. ولم نستطع أن نحدد مصدره .. ولما اشتد وتعالى هتف ديترنج للمرة الثانية :
– اطلقوا النار عليها ! .. اطلقوا النار عليها ... ألا تفعلون ؟ .. لعنة الله عليكم .
فقال كات بهدوء :
– لابد من الاعتناء بالرجال أولا ..
وقفنا وحاولنا أن نعرف مصدر الاصوات الصارخة .. وكان مع موللر منظار مكبر .. فرأينا أشباحا متجمعة .. هم رجال يحملون النقالات لحمل الجرحى .. وحولهم أشباح أخرى تتحرك هنا وهناك .. هى الجياد الجريحة .
كان بعضها يعدو فى الميدان .. ويكبو .. ثم ينهض ويستأنف الركض .. ورأينا جوادا مبقور البطن وقد تدلت أمعاؤه ، فتعثر فيها وسقط على الارض ، ثم نهض ثانية .
رفع ديترنج بندقيته وسددها .. لكن كات جذب ذراعه قائلا :
– هل جننت ؟ ..
فارتعد ديترنج وألقى البندقية على الارض ..
جلسنا ووضعنا أصابعنا فى آذاننا .. لكن تلك الصرخات المروعة كانت تخترق أسماعنا ..
لم نستطع صبرا .. وكان لابد أن ننهض ونبحث عن مصدر هذه الأصوات ..
على ان رجال النقالات أخذوا يصوبون الى الجياد الجريحة طلقات متفرقة .. فأخذت أشـــباحها تتساقط واحدا بعد الآخر .. لكن الرجال لم يستطيعوا أن ينالوا الجياد الجريحة التى كانت تعدو صارخة ألما . وما لبث أحد الجنـــود أن ركع على ركبتيه وصوب بندقيته .. فسمعت طلقة سقط جواد على أثرها .. ثم ثانية ..

وهكذا .. وبقى آخر الجياد معتمدا على قائمتيه الأماميتين فقط وقد هبط عجزه فوق الارض وأخذ يدور حول نفسه .. فأسرع اليه الجندى واطلق عليه رصاصة .. فهوى ببطء الى الارض .

تنفسنا الصعداء .. وانقطع الصراخ .. وأخذ ديترنج وحده يروح ويجىء حولنا ، وقال منفعلا :

ـ ماذا جنت هذه المخلوقات ؟ .. ان استخدام الجياد فى الحروب هو نذالة ما بعدها نذالة .

حان وقت العودة الى (اللوريات) .. فأخذنا نتراجع ، وكانت الساعة تقارب الثالثة صباحا ، وأخذت وجوهنا تبدو داكنة فى ضوء القمر الباهت .

أخذنا نسير فى صف واحد بين الخنادق وحفر القنابل ، حتى وصلنا الى منطقة الضباب . وكانت تبدو على كات دلائل القلق .. فقلت :

ـ ماذا بك يا كات ؟ ..

ـ كم أود لو كنت الآن فى الاكواخ .

ـ سنخرج من هذه المعمعة بعد قليل يا كات .

فقال بانفعال :

ـ لست مطمئنا .. لست مطمئنا .

وصلنا الى الحقول المكشوفة .. وظهرت الغابة الصغيرة المجدبة . وكنا نعرف كل شبر من الارض فى هذه المنطقة ، ومن بينها المقبرة ذات المدافن المشيدة والصلبان السوداء .

وفى هذه اللحظة دوى انفجار يصم الآذان .. فانبطحنا على الارض ورأينا سحابة من دخان ونار على بعد نحو مائة متر أمامنا .

وفى اللحظة التالية حدث انفجار ثان ، ورأينا قسما من الغابة يرتفع رويدا رويدا فى الفضاء .. وشقت الفضاء بضع أشجار ما لبثت أن تناثرت وتفرقت أجزاؤها . واخذت القذوفات تدوى وتصفر فى كل مكان .

صاح صائح :

ـ احتجبوا ! .. احتجبوا ! ..

كانت الحقول مسطحة .. والغابة بعيدة عنا ، فضلا عن خطورة الالتجاء اليها .. ولم يكن امامنا حجاب سوى المقبرة والمدافن ..

فأخذنا نتخبط فى الظلام متجهين اليها .. والتصق كل رجل خلف مدفن .

ولم نكد نستقر لحظة فى أماكننا حتى أضـــاءت المقبرة بشهب المقذوفات .. وحاولت فى هذا الضوء أن ألقى نظرة على الحقول . فاذا هى بحر خضم زاخر يموج بألسنة اللهيب ، والمتفجرات . والموت كل الموت لمن يحاول أن يشق طريقه بينها .

تلاشت الغابة .. دمرت عن آخرها .. محيت محوا .. ولم يكن مفر من البقاء حيث نحن فى المقبرة .

كانت الأرض تتطاير ثم تمطرنا بوابل من التراب والحجـارة .. وأحسست بلطمة .. ومزقت كمى شظية طائرة . فتحسست ذراعى .. لكنه كان مجرد خدش .

ثم دهمتنى صدمة فوق جمجمتى .. وأخذت أفقد صوابى .. على انى بذلت جهد المستميت حتى لا استسلم للاغماء .. وأخذت أمسح الطين على وجهى وعينى .

ورأيت حفرة شقت فجأة أمامى . ان القنابل لا تسقط مرتين فى حفرة واحدة .. وقررت أن أندس فيها .

اندفعت زحفا على الارض كالسمكة .. وفجأة سمعت صفير قنبلة فانكمشت على نفسى بسرعة .. وانشبت يدى حولى ملتمسا مخبأ فوجدت شيئا الى يسارى .. فـدنوت منه .. ولـكنه تحرك من مكانه .

تأوهت .. وكانت الارض تنفجر حولى .. والدوى يصم اذنى .. وزحفت تحت الجسم المتحرك .. وغطيت نفسى به .. وجـذبته فوقى . فاذا هو خشب .. وقماش .. فياله من حجاب دون الشظايا المتناثرة .

فتحت عينى .. وأمسكت أصابعى كما .. ثم ذراعا .. هل هو جريح ؟

صرخت نحوه .. فلم يجب .. كان ميتا .

جعلت أتحسس بيدى .. فوجدت شظايا من الخشب .. وتذكرت فى هذه اللحظة اننا راقدون فى مقبرة .

ان سقوط المقذوفات أبشع شىء فى الوجود .. فهو يذهل الحواس ويطيش العقول .

لكنى اخذت أزحف تحت تابوت الميت .. ورحت التمس فيه

عاصما من الموت .. والموت نفسه كامن فيه .

كانت الحفرة مفغوره أمامي .. فقـررت ان اندس فيهـا بوثبه واحدة .

وفجأة احسست بلطمة على وجهى ، ويد تشبثت بكتفى .. فهل استيقظ الميت ؟

هزتنى اليد .. فأدرت راسى . وفى لمح البصر رأيت وجه كات بجانبى .. وكان فاغرا فاه ، صارخا .

لم أسمع شيئا .. فجعل يزحف حتى دنا منى . ووصل الى صوته فجأة :

ــ غاز ! . غا .. ز ! . غا .. ز ! . حذرهم ! ..

انتزعت كمامتى الواقية من الغازات الخانقة .. ورأيت شخصا على مسافة منى .. فلم أفكر فى هذه اللحظة الا فى تحذيره .. فأخذت اصرخ نحوه :

ــ غا .. ز ! غا .. ز .. ! .

ناديت .. وانحنيت نحوه .. وأشرت له .. لكنه لم ير .

كررت النداء والاشارة .. لكنه كان يغوص براسه فقط بين وقت وآخر ..

واذا هو متطوع حديث .

نظرت الى كات يائسا .. فرأيته لابسا كمامته .. وجعلت أجذب كمامتى بدورى .. وأزحت خوذتى .. فانحدرت على وجهى .. ووصلت الى المتطوع .. فوضعت يدى على كمامته المعلقـة الى ناحيتى . وجذبتها فوق وجهه .. ففهم .. وسرعان ما تركته .. وانحدرت فى الحفرة بوثبة واحدة ..

كانت أصوات قنـابل الغـازات الخافتة تمتزج بدوى القنـابل المفرقعة . وسمعنا ناقوسا يدق بين وقت وآخر وطبولا من نحاس تدوى محذرة من الغازات ..

انحدر الى الحفرة شخص خلفى . ثم تبعه ثان . فمسحت عوينات الكمامة ونظرت من خلالها . فرأيت كات وكروب وشخصا آخر .. وانكمشنا نحن الاربعة فى هذا الانتظار الرهيب الذى تكاد فيه الانفاس تحتبس فى الصدور .

وفى هذه اللحظات الرهيبة يقف الانسان بين الحياة والموت ، خشية ان يكون القناع غير محكم الوضع ، فيتسرب منه الموت الزؤام

.. وتذكرت فى هذه اللحظة تلك الزفرات المروعة التى كانت تنبعث فى المستشفى من مرضى الغــازات الذين يقضون الايام الباقية من حياتهم فى اختناق دائم ، وكلما انتابتهم نوبات السعال الحاد بصقوا لحم الرئتين كتلا دامية .

أخذت أتنفس واضعا فمى على فوهة الصمام . وكانت سحب الغازات الخانقة تتمدد فــوق ســطح الارض وتهبط فى الحفر .. ووصلت الى حفرتنا أخيرا ..

وكزت كات . فقد كان أسلم عاقبة لنــــا أن نزحف من الحفرة ونبقى عند سطحها ، لآن الغاز يتراكم فى قاعها .. وما كدنا نهم بذلك حتى انهالت القنابل من جديد .. وكانت هذه أشد وطأة واهول وقعا .

وفجأة هوى جسم أسود فوقنا فى صوت كالرعد .. واستقر قربنا .. كان تابوتا قذفته القنابل فى الحفر .

أصاب التابوت فى سقوطه زميلنا الرابع وجرح جرحا بالغا فى ذراعه ..

فلم نستطع أن نخف لانقاذه . وأخذ راسى يدور داخل الكمامة .. واحسست بأنه يكاد ينفجر .. وضاق صدرى باستنشاق الهواء المحبوس .. وانتفخت أوداجى . وشعرت بأنى أكاد أموت اختناقا .

ونفذ ضوء شاحب الينا . فتسلقت الحفــــرة ونظرت فــوق حافتها .

رأيت فى ضوء الفجر ساقا مبتورة . ثم وقع نظرى على شخص واقف على بعد أمتار قلائل . فمسحت الضباب عن عوينات الكمامة . وشاهدت الرجل بغير قناع .

انتظرت بضع ثوان .. لم يسقط الرجل .. وكان يتطلع بنظره حوله .. وسار بضع خطوات .. وسرعان ما نزعت الكمامة عن وجهى وقد احسست بحشرجة فى حلقى .. وسقطت على الارض .. فتدفق الهــواء فى رئتى تدفق المــاء العــذب .. وشــعرت بأن عينى قــد جحظتا .

***

انتهى التدمير .. فتحولت الى الحفرة واشرت الى زملائى الباقين بها .. فنزعوا كماماتهم .. ورفعنا الجريح .. واسرعنا بالابتعاد .

لقد صارت المقبرة أكواما من الحطام .. وتناثرت التوابيت والجثث في أرجائها ..

لقد قتل هؤلاء الموتى مرة ثانية .. لكن كل واحد منهم ممن قذفتهم الغارة أنقذ واحدا منا ..

رأينا في طريقنا رجلا ممددا .. فوقفنا .. واستمر كروب وحده في سيره مع زميلنا الذي أصيب في ذراعه .

وكان الراقد متطوعا حديثا .. وقد غطى الدم فخذه .. ولما رأيت دلائل الاعياء الشديد بادية عليه تناولت « زمزميتى » التى كنت محتفظا فيها بشيء من الشاى والروم ، وهممت باعطائه جرعة منها .

ولكن كات جذب ذراعي وانحنى فوقه وسأله :

ــ أين أصبت أيها الزميل ؟ ..

تحركت عيناه فقط .. ولم يقو على الجواب .

فأخذنا ننزع « بنطلونه » باحتراس وهو يتأوه ، وصرنا نواسيه ونشجعه .

لو كانت الاصابة في معدته لوجب ألا يشرب شيئا بتاتا .. وهذا ما جعل كات يمنعني من اسعافه بالشراب .. على اننا تشجعنا اذ رأيناه لا يتقيأ ..

عرينا الفخذ .. فاذا هو كتلة مختلطة من اللحم والعظام المهشمة .. وقد تحطم المفصل .. وهكذا قضي على الفتى البائس الا يسير الى الابد ..

بللت صدغيه .. وصببت جرعة من الشراب في فمه .. فتحركت عيناه ثانية .. ورأينا في هذه اللحظة ذراعه اليمنى مجروحة كذلك ، يسيل منها الدم .

بسط كات قطعتين من القماش لتضميد الجرح بهما .. وبحثت عن شيء أعصبهما به .. فلم نجد شيئا .. ولذلك جذبت «البنطلون» عن ساقيه حتى انتزع قطعة من سرواله .. لكني وجدته بغير سروال .. وفي هذه اللحظة تفرست في وجهه وامعنت النظر فيه .. فاذا هو الفتى الصغير الذي احتمى بي منذ قليل .

في هذه الأثناء أخذ كات ضمادة من جيب جندي صريع وعصب بها الجرح بعناية .. ثم قلت الفتى الذي كان يحدق فينا :

ــ سنذهب لاحضار نقالة .

ففتح فمه وهمس :
ـ ابقوا هنا ...
فقال كات : سنعود بعد قليل .. سنذهب لاحضـــــار نقـالة لحملك .
لم ندر ان كان فهم كلامنا .. فقد أخذ يتأوه كالطفل وراح يتشبث بى قائلا :
ـ لا تذهبوا ! ..
فتطلع كات حوله وهمس :
ـ الا يجب أن نأخذ مسدسا ونضع حدا لما به ؟ ..
كان جليا ان الفتى الصغير لن يحتمل النقل . واذا احتمله فلن يعيش أكثر من أيام قلائل . وما أصابه الآن لا يذكر بالقياس الى ما سيحس به من الآلام حتى يلفظ أنفاسه . فهو الآن مشلول الاعصاب لا يشعر بشيء .. وما هى الا ساعة حتى يدب فيه الألم القاتل ويدوى صراخه فى الآذان .. وكل يوم يعيشه سيكون منه فى عذاب أليم .. ولذلك أومأت برأسى ايجابا وقلت لكات :
ـ نعم يا كات .. يجب أن نخلصه من بؤسه .
وقفنا جامدين لحظة .. واستقر عزم كات أخيرا . ونظرنا حولنا . لكنا لم نبق وحدنا .. فقد ظهر زملاء لنا من حفر القنابل .. ورأينا النقالات آتية ..
استدعينا نقالة .. وقال كات وهو يهز رأسه :
ـ يا لهم من أطفال أبرياء ! ..

***

كانت خسائرنا أقل مما توقعنا .. فقد قتل خمسة وجرح ثمانية .. وكانت هذه الغارة فى الواقع قصيرة الأمد .. ورأينا اثنين من القتلى فى القبور المنبوشة .. فأهلنا عليهما التراب .
واخذنا فى العودة .. فسرنا صامتين فى صف واحد ، احدنا خلف الآخر .. وحمل الجرحى الى المستشفى وهم يئنون ويصرخون .. وانتشر السحاب وأخذ المطر يتساقط .
ووصلنا بعد ساعة الى اللوريات .. فركبناها وقد وجدنا فيهـا الآن فراغا أرحب .
ازداد المطر غزارة . فتناولنا رقعا من المشمع طرحناها فـوق رءوسنا . فأخذ المطر يتساقط فوقها وينحدر على جوانبها مدرارا

.. وراحت « اللوريات » تتخبط فى الحفر ونحن نتخبط معها شبه نائمين .

وجلس رجلان فى مقدمة اللورى الذى يقلنا ومعهما حاملان لهما أسنان مدببة .. وكانت مهمتهما تنحصر فى ترقب الاسلاك التليفونية المعلقة فى مستوى رءوسنا حتى لتكاد تطيح بنا ، ورفعها فى اللحظة الملائمة بالحاملين حتى يبتعد اللورى بسلام .. وكنا نسمع نداءهما بين وقت وآخر وهما يحذران من الاسلاك ، فننثنى ركبنا ونحن بين اليقظة والنوم ، ثم ننتصف من جديد .

وسارت « اللوريات » على هذا النحو الممل ، والمطر يتساقط منهمرا .

كان يتساقط فوق رءوسنا ، وفوق رءوس القتلى فى الميدان .. وفوق جسد المتطوع الصغير ذى الجرح الغائر الكبير .. وفوق قبر كمريخ ، وكأنه يتساقط فوق قلوبنا ...

ودوى صوت انفجار فى مكان ما ، فانتبهنا . واتسعت احداقنا ووضعنا أيدينا على حافة « اللوريات » استعدادا للوثوب فى الحفر المجاورة للطريق .

لكن لم يحدث شىء . واستمر الزميلان يحذران من الاسلاك . ونحن ننثنى بين وقت وآخر استجابة لهذا التحذير ، ونكاد نستسلم للنوم ..

الفصل الخامس

لا شك ان قتل القمل قملة قملة هو مهمة متعبة اذا كان على الانسان أن يقتل مئات .. فان هذه الحشرات الصــــفيرة صلبة الأجسام . وعمليـــة القتل بأظافر الأصـــابع لا تلبث أن تثير الملل والمضايقة .

ولذلك فان جادن جاء بعلبة « ورنيش » فارغة وثبت فيهـــا قطعة من السلك ووضع العلبة فوق لهب شمعة .. فكان من السهل وضع القمل فى هذه المقلاة الطريفة ، والقضاء على أعدائنا جملة واحدة ! ..

والواقع اننا جلسنا فى شبه حلقة حول هذه المقلاة الغريبة ، وخلع كل منا قميصه ووضعه فوق ركبتيه ، فتجردت أجسادنا فى الهواء الدافىء ، وأخذت أيدينا تعمل بهدوء !

وكان القمـــل الذى وجـــده هاى ديستوس فى قميصه من نوع غريب . فقد كانت رءوسه متوجة بصلبان حمراء . وفسر ديستوس هذه الظاهرة بأنه جاء بهذه السلالة القملية النـــادرة من مستشفى « تورو » ، حيث كانت هذه الحشرات ضيفة مكرمة معززة فـــوق جسد كبير الجراحين . وقرر ديستوس انه ينوى استخدام الدهن الذى كان يتراكم فى علبة « الورنيش » الساخنة فى طلاء حذائه . وراح يضج بالضحك نصف ساعة طربا من هذه النكتة ! .

على اننا لم نشاركه ضحكه وطربه . وكنا منشغلين بالتفكير فى مسألة أخرى ..

فقد تحققت الاشاعة التى سمعناها من قبل ، وجاء هملستوس الى الميدان أمس .. وسمعنا صوته المعروف لنا جيدا .. والظاهر انه أسرف فى اجراء التدريبات المعروفة فى الحقل المروى المحروث فى ميدان التدريب مع اثنين من المتطوعين الجدد ، ومن سوء حظه ان نجل الحـــاكم كان يراقبه .. فافتضح أمره . ووضع حدا لتعسفه .

أخذ جادن يفكر ساعات كاملة فيما سوف يقوله لهملستوس .. وراح هاى ديستوس يحدق فى راحتيه العريضتين ويغمز لى بعينه .. فقد كان الصفع هو احدى الهوايات المحببة الى نفسه .. وراح كروب وموللر يتسليان بتخيل ما سيكون ..

وفيما نحن كذلك أثار موللر فجأة موضوعا .. فقد جعل يسألنا واحدا واحدا عما نفعله بعد انتهاء الحرب .. فقرر كات حينما طرح عليه السؤال انه سيعود الى مهنته القديمة كاسكاف ، حتى يجد قوت زوجته وأولاده .. وأجاب هاى ديستوس بأنه سيستأنف عمله فى الغابات كحطاب ، وان كان يفكر فى الاستمرار فى خدمة الجيش مدة اثنى عشر عاما حتى يضمن له معاشا يقضى به أيامه فى رخاء وهدوء . وأجاب جادن بأنه يفضل أن يتفرغ لهملستوس أولا .. حتى اذا نال ثأره منه كما يجب ويشتهى عاد الى مهنته القديمة كحداد . وقرر ديترنج باقتضاب انه يعود رأسا الى الحقل حالما يسرح من الجيش ..

ولما وصلت الاستفتاءات الى هذا الحد ظهر هملستوس .. وقصد الى ناحيتنا مباشرة .. فتورد وجه جادن وتمدد على الحشائش وأغمض عينيه انفعالا .

تردد هملستوس قليلا قبل الوصول الينا .. ثم حزم أمره اخيرا ودنا منا .. فلم يتحرك أحد من مكانه او ينهض لاستقباله .. وأخذ كروب يتطلع اليه فاحصا مدققا .

وقف أمامنا بضع دقائق منتظرا .. ولما لم ينبس أحد منا بكلمة قال أخيرا :

ـ حسنا ؟ ..

مرت بضع ثوان .. وتبين أن هملستوس لا يدرى كيف يتصرف . ولو كانت الرياح كما يشتهى لاستفتح تعذيبه الماضى لنا .. لكن يظهر أنه تعلم ان ميدان القتال غير ميدان التدريب .

على انه مع ذلك جرب « تهويشه » الماضى .. وكان يرجو اذا خاطب واحدا منا بمفرده أن يظفر بجواب .. ولما كان كروب أقربنا اليه فقد شرفه بحديثه ، فقال له :

ـ أنت هنا أيضا ؟ .

لكن البرت كروب لم يكن يضمر له حبا مفقودا .. فأجابه فورا :

ــ أنا هنا قبلك ! .
فارتعش شاربه .. وقال :
ــ ماذا ؟ .. ألا تعرف من أنا ؟ ..
ففتح جادن عينيه وقال :
ــ أنا أعرفك .
والتفت هملستوس الى جادن قائلا :
ــ هذا جادن ؟ .
فرفع جادن رأسه وقال :
ــ وهل تعرف من أنت ؟ .
قلق هملستوس .. وقال :
ــ من أى عهد رفعت الكلفة بيننا ؟ . لا اتذكر اننا نمنا من قبل فى المجارى معا ..
جن جنون جادن ، وقال على الفور :
ــ صحيح . فقد نمت فيها وحدك ! .
راح هملستوس يغلى غضبا .. لكن جادن استأنف هجومه بلا توقف .. فاستطرد :
ــ ألا تحب أن تعرف من أنت ؟ . كلب حقير .. لا اكثر ولا اقل.. انى كنت أنتظر أن أبلغك هذا الرأى منذ زمن طويل ..
ولمعت عينا جادن اغتباطا بتحقيق أمانيه الماضية فى الثأر من هملستوس وقال وهو يبصق على الارض :
ــ كلب حقير ! .
ولم يتمالك هملستوس عنان غضبه . وقال فى حنق شديد :
ــ ما هذه اللهجة يا لص الاكل ؟! . قف أمامى ! . وضم قدميك حينما يخاطبك ضابط ارقى منك ! .
فلوح جادن بيده ساخرا . وقال :
ــ أجر يا هذا ! .
فصاح هملستوس : انى آمرك يا جادن ! . قف ! .
فقال جادن : هل تريد شيئا آخر ؟ .
ــ هل تطيع أمرى أم لا ؟ .
فأجاب جادن عن هذا الأمر بجواب غازى من امعائه .. فصرخ هملستوس جنونا :
ــ ستحاكم امام محكمة عسكرية ! .

وقصد هملستوس رأسا الى غرفة القيادة واختفى عن انظارنا ..
واستغرق هاى وجادن فى الضحك حتى استلقى كلاهما .. على أن كات قلق وقال :
ــ اذا شكاك يا جادن ساء موقفك .
فقال جادن : هل تظن أنه سيشكو فعلا ؟ .
فأجبت : هذا مؤكد ..
وقال كات : ستسجن على الاقل خمسة أيام .
فقال جادن دون أن يتأثر : ان خمسة أيام سجن معناها الراحة والبعد عن الميدان .
ونهض جادن وانصرف مع ديستوس ولير حتى لا يفاجأ وهو فى طربه الحالى .

***

عاد موللر الى استفتائه لنا فيما نفعل بعد الحرب .. لكننا معشر الطلاب السابقين تحيرنا ولم ندر كيف يكون مصيرنا ، وهل يمكن أن نعود ثانية الى حياة المدرسة وحشو الرأس بالمعلومات الفارغة التى كانوا يصبونهـــا فى آذاننا ، بعـد الذى رأينـــاه فى ميــدان القتال ؟ .
ولما كان البرت كروب مفكرا بطبعه ، فقد لخص الموضوع قائلا :
ــ ان كلا من كات وديترنج وهاى سيعودون الى مهنتهم السابقة ، اذا كانت لهم مهن فعلا .. وسيحذو هملستوس حذوهم .. أما نحن معشر الطلاب فلم يكن لنـــا مهنة أصلا . وكيف يمكن اذا حاولنا احتراف مهنة جديدة أن نألفها وننجح فيها بعد الذى خبرناه هنا فى الميدان . ؟
فقال موللر صاحب الاستفتاء .. وقد ساوره القلق بدوره :
ــ لكن ماذا يحدث لنا حقا بعد انتهاء الحرب ؟ .
فأجاب كروب وهو يهز كتفيه :
ــ لا أدرى .. لنعد أولا الى مسقط رأسنا ، ثم نفكر بعد ذلك فيما يكون .
عجزنا جميعا عن حل هذا اللغز .. وقلت :
ــ ما الذى يمكن أن نقوم به من الاعمال ؟ ..
فأجاب كروب فى ملل :
ــ لا اريد أن اعمل شيئا .. ستموتون جميعا فى احدى المواقع ..

فما الذى يهمكم ويزعجكم اذن لا .. لا أظن اننا سنعود ابدا .
ساد الصمت قليلا .. ثم قلت وأنا أستلقى على ظهرى !
ـ كلما فكرت يا ألبرت فى زمن السلم الذى تتحدث عنه ، صورت لى نفسى أن أقوم بعمل لا يتصوره العقل .. عمل يوازى هذه الكارثة التى بلينا بها .. لكننى عاجز عن تصور ما أفعل .. وكل ما أدريه هو أن مسائل المهن والدراسات والرواتب كانت وما تزال تثير ازدرائى واشمئزازى .. انى لا أرى شيئا .. لا أرى شيئا على الاطلاق يا ألبرت ..

واختلط كل شىء فى عينى فى هذه اللحظة .. ويئست من كل شىء . وساور هذا الاحساس كروب كذلك .. فقال :

ـ سنعانى ازمة شنيعة .. لكن ما من أحد يفكر فى أمرنا .. ان سنتين تحت أهوال القنـــابل والمدافع أمر لا يسهل نسيانه والتخلص من آثاره .

وانتهى بنا التفكير الى ان هذه الأزمة لا تشملنا نحن فقط ، بل تشمل كذلك جميع الذين هم فى سننا ، وان كانوا يختلفون فى هذا الشأن نسبيا .. ولكن هذا المصير هو مصير جيلنا الحاضر بأسره .. ولخص البرت الموضوع قائلا :

ـ ان الحرب قد دمرتنا ولم نعد نصلح لشىء ..

لم يكذب كروب ، فقد طار الشباب عنا .. وفارقتنا الحياة .

كنا فى الثامنة عشرة من أعمارنا وبدأنا نحب الحياة والعالم .. فاذا نحن نمزقها اربا .. ونحطمها تحطيما .

انفجرت القنبلة الاولى فى قلوبنا .. وانتزعنا من عالم النشاط والجد والتقدم .. فلم نعد نؤمن بهذه الاشياء .. واصبحنا نؤمن بالحرب فحسب ...

***

بدت فى غرفة القيادة دلائل النشاط والحركة . والظـاهر أن هملستوس قد بعث فيها الحياة .. فقد خرج منها جاويش بدين يتبعه هملستوس وهو يتحرق شوقا لنيل ثأره .

نهضنا .. وقال الجاويش :

ـ أين جادن ؟ .

لم يعرف أحد بالطبع .. فقال هملستوس غاضبا وهو يتفرس فى وجوهنا .

ـ أنتم تعرفون تماما أين هو .. لـكنكم لا تريدون الـكلام .. تكلموا ! .
تطلع الجاويش حوله باحثا .. لكن جادن لم يظهر له أثر .. فقـال :
ـ يجب على جادن أن يقدم نفسه فى ظرف عشر دقائق .
ثم ابتعد عنا يتبعه هملستوس .. فقال كروب :
ـ حينما نذهب الى الميدان لوضع الاسلاك الشائكة مرة ثانية ، سأسقط احدى لفائف السلك على قدم هملستوس :
فضحك موللر وقال :
ـ الواقع انه سيكون مادة خصبة لمداعباتنا .
كان مطمعنا الوحيد أن ننتزع الغرور من رأس هملستوس . ونضع حدا لعجرفة هذا المخلوق .
ذهبت الى الكوخ وحذرت جادن . فأسرع بالاختفاء . وعدت الى زملائى حيث جلسنا نلعب الورق ، وكأن لم يحدث شىء .
وبعد نصف ساعة عاد الينا هملستوس .. فلم يهتم به أحد .. ولما سأل عن جادن هز كل منا كتفيه .
واصر هملستوس على طلبه وقال :
ـ اذن فيحسن بـكم ايجاده .. ألم تذهبوا للبحث عنه ؟ ..
فتمدد كروب فوق الحشائش وقال :
ـ هل جئت الى هنا قبل الآن ؟ .
فقال هملستوس بعنف : ليس هذا شـــأنك .. أريد الجواب فقط .
فقال كروب وهو ينهض :
ـ لا بأس .. أنظر الى سحب الدخان الصغيرة الظاهرة هنـاك .. هى متصاعدة من الميدان .. وقد كنا فيه أمس .. فقتل منا خمسة ، وجرح ثمانية .. وان كانت هـذه نتيجة يسيرة على كل حال .
أما فى المرة الثانية ، حينما تذهب معنا الى الميدان ، فسيتقدم اليك الزملاء قبل أن يلقوا حتفهم ، ويضربون أقدامهم ، ويسألونك فى احترام : « هل تسمح لنا بالتقدم ؟ .. هل تأذن لنا بمقابلة الموت ؟ . كنا ننتظر مثلك منذ زمن طويل ! » .
وعاد كروب الى الجلوس .. واختفى هملستوس فى لمح البصر .

لكن هذه المناوشات بلغت نهايتها .. فقد تقرر محـاكمة جادن وكروب .. ودعينا في المساء واحدا بعد الآخر للمثول أمام ضابط الكتيبة الملازم « برتنك » . وطلب الى كشاهد ان افسر أسباب تمرد جادن على هملستوس .. فأسهبت في بيان ألوان الاضطهاد التي كان هملستوس يتفنن معنا أثناء التدريب ، والتي كان يختص منهـا جادن بالنصيب الاوفر .. وتطابقت أقوالنا جميعا في هذا الشأن .. فلم يجد هملستوس بدا من الاعتراف حينما واجهه الضابط بنا .. وسألنا برتنك أخيرا :

ـ لم ام تبلغوا هذه الحوادث في حينها ؟ .

سكتنا جميعا .. ولم يكن برتنك في حاجة الى الجواب . فقد كان يعرف قبل غيره قيمة الشكوى من مرؤس ضد رئيس ، فضلا عن أنها غير مألوفة في صفوف الجيش .

على أن الضابط أحاط بظروف الموقف .. وأخذ يوبخ هملستوس مبينا له أن ميدان القتال يختلف عن ميدان التدريب .. ولما جاء دور جادن وعظه برتنك طويلا وحكم عليه بالحبس البسيط ثلاثة أيام .. ثم حـكم على كروب بيوم واحد وهـو يقول له : « لا حيلة في هـذا » .

والواقع ان برتنك كان ضابطا ظريفا .

كان الحبس البسيط عقوبة هينة . فهو لا يتعدى الحجز في فناء ذي سياج كان من قبل مأوى للدواجن . ولم يتعذر علينا بوسائلنا الخاصة أن ننضم الى زميلينـــا ، حيث استقبلنا جادن وهو ينق كالدجاج . وجلسنا نلعب الورق حتى وقت متأخر من الليل .

***

ولما انصرفنا أخيرا سألني كات :

ـ ما رأيك في لحم الاوز المشوى ؟ .

فأجبته : بديع ! .

تسلقنا احدى مركبات الذخيرة . ولم تكلفنا المسـألة أكثر من سيجارتين رشوة للسائق . وكان كات قد حدد المكان بمهارته المعهودة وهو حظيرة خاصة بالقيادة حجز فيها الأوز الذي سمعنا صوته من قبل ، كائنة خلف الجـــدار مباشرة ولها باب يغلقه وتد خشبي فقط .

استقر الرأى على ان أحمل الأوزة بنفسي ، وتلقيت التعليمات

اللازمة .. ولما وصلنا الى الجدار تسلقته بمساعدة كات ، وهبطت الى الارض . ووقف كات يراقب ويحرس الطريق ..

انتظرت قليلا حتى ألفت عيناى الظلام ورأيت الحظيرة ، فتقدمت اليها وأزحت الوتد الخشبى . ثم فتحت الباب .

رأيت أوزتين . فاذا أمسكت احداهما صاحت الثانية . ولم يكن بد من امساك الاثنتين معا . وبكل سرعة ..

ووثبت الى الداخل .. وأمسكت بأوزة .. وفى لحظة أمسكت بالثانية .

ولطمت رأسيهما فى الجدار حتى أذهلتهما وأسكتهما .. لكن الاوزتين استحالتا فى لحظات كتلة من الحركة والاجنحة . فأخذت أترنح . وخيل الى أن ذراعى صارتا أجنحة مرفرفة ، وانى أكاد أطير فى السماء .

وفجأة احسست بضربة قوية .. فسقطت على الارض .. وسمعت زمجرة مخيفة . وفى اللحظة الاخيرة رأيت كلبا من نوع « البولدوج » يحاول أن ينشب أسنانه فى عنقى . فتمددت ساكنا ودسست ذقنى فى صدرى .

سحب الكلب رأسه بعد فترة خيل الى انها دهر . وجلس بجانبى ساكنا . وكلما حاولت الحركة عاد الى زمجرته المخيفة .

فكرت فى الأمر .. فلم يكن أمامى الا أن أستل مسدسى قبل أن يأتى أحد . وأخذت أدنى يدى من مكان المسدس فى حذر وبطء شديدين .

قبضت يدى على المسدس بعد فترة خيل الى انها ساعة .. ثم شهرت المسدس بسرعة البرق وأطلقته . فوثب الكلب جانبا وهو يعوى ..

وما كدت أندفع من باب الحظيرة حتى تعثرت فى احدى الاوزتين وسقطت على أم رأسى .

أمسكت الاوزة بأقصى سرعة . وقذفتها فوق الجدار .. وتسلقت خلفها ، وما كدت أمتطى الجدار حتى كان الكلب يثب فى أثرى .. فألقيت بنفسى فى الناحية الاخرى بسرعة . ورأيت كات على بعد خطوات منى متأبطا الاوزة . وسرعان ما أخذنا نركض معا .

واخمد كات انفاس الاوزة فى الطريق ، وذهبنا الى كوخ مهجور كنا نستخدمه لهذا الغرض . فى أحد أركانه شبه موقد هو رقعة

من الحديد مرفوعة فوق أحجار . فجئت ببعض الحطب وأوقدت النار . وأنهمك كات فى نزع ريش الاوزة وتنظيفها . واحتفظنا بريشها نستخدمه كوسادة تذكارا لهذه الغزوة الموفقة .

كان قصف المدافع فى الميدان يصل الى آذاننا وفجأة سمعنا دويا شديدا واهتزت أركان الكوخ . فعلمنا أنها قنابل الطائرات . ثم سمعنا صرخة مخيفة . ففهمنا ان أحد الاكواخ دمر فوق بعض الرءوس .

ووصل صوت أزيز الطائرات الى آذاننا واضحا . لكن كانت نافذة الكوخ المهجور محجوبة بغطاء كثيف . فلم تتيسر رؤيتنا من الخارج .

جلسنا وجها لوجه نشوى الاوزة فى الليل الموحش الحافل بألوان الكوارث .. ولم نتبادل كلاما كثيرا .. لكن كان كلانا يفهم خواطر الآخر فهما تاما ، ويشعر بأنه أقرب الناس الى قلبه .

استغرقت عملية الشواء وقتا طويلا . فأخذنا نتبادل العمل . ولما نضجت أخرج كلانا مطوته وشوكته ، واقتطع فخذا من الاوزة . وكان معنا بعض الخبز . فأنهمكنا فى الأكل بشهية ولذة عظيمة .

كنا أخوين ، وراح كلانا يؤثر صاحبه بأطيب الأجزاء .. ولما شعرنا بالامتلاء أخيرا أخذنا ندخن .. وبقى من الاوزة جانب كبير .

اقترحت على كات أن نحمل نصيبا منها الى زميلينا كروب وجادن ، فأقر هذا الرأى .. ولما ذهبنا اليهما فى مأوى الدواجن وأيقظناهما وقدمنا اليهما الغنيمة ظنوا اننا من السحرة . وسرعان ما أنشب كلاهما أنيابه فى نصيبه .. وتناول جادن جناحا كاملا بين أسنانه وراح يعض فيه كالوحش الجائع .

ثم عدنا الى كوخنا حوالى الفجر وتسلل كلانا الى فراشه راضيا قرير العين بعد ان امتلأ بطنه بأطيب الطعام .

الفصل السادس

ترددت اشاعات عن احتمال هجوم العدو .. فصدرت الاوامر بذهابنا الى ميدان القتال قبل الموعد المعتاد بيومين .. ومررنا فى الطريق بمدرسة دمرتها القنابل .. فرأينـــا قريبا منها صفين من توابيت جديدة تبلغ المائة ، أقيمت فى وضع رأسى .

فقال موللر فى دهشة حينما وقع نظره على هذا المشهد :

ـ هذا استعداد طيب لمناسبة الهجوم ! .

وقال ديترنج : هذه التوابيت لنا .

فأجاب كات غاضبا : لا تقل هذا الكلام الفارغ ! .

فقال جادن : انك تكون سعيد الحظ اذا فزت حتى بتابوت . فانهم سيلفون جثتك العتيقة فى قطعة من المشمع ويلقونها تحت التراب .

وراح باقى الزملاء يتبادلون مثل هذه النكات غير المستحبة .. ولكن هل كان فى وسعنا أن نفعل غير ذلك ! .. ان هذه الاكفان أعدت لنا حقا .. والاستعداد فى ذاته لا يحتاج الى تنويه .

كان كل شيء أمامنا فى حالة تشبه الغليان .. وأمضينا الليلة الاولى فى الاستطلاع والاستعداد . ولما ساد الهدوء سمعنا مركبــات النقل فى عمل مستمر خلف خطوط الاعداء ، ولم تنقطع هذه الحركة حتى بزغ الفجر .. وقرر كات أنهم لا يتراجعون .. بل يستحضرون الفصائل والذخيرة بلا انقطاع الى ميدان القتال .

فهمنا فى الحال ان الانجليز عززوا مدفعيتهم . وجاءوا بما لا يقل عن أربع بطاريات جديدة من مدافع عيار تسع بوصات نصبوها الى يمين الميدان .. وبثوا فى الخنادق بطاريات جديدة من ذات القذائف البعيدة المرمى .

كنا فى حالة نفسية سيئة .. فاننا ما كدنا نمضى فى الخنادق ساعتين حتى أخذت قذائفنا نحن تسقط علينـــا .. وقد تكرر هذا الخطأ ثلاث مرات فى غضون شهر .. ولو كانت المسألة خطأ فى

تقدير الاهداف لما اكترث أحد .. لكن الحقيقة ان مدافعنا نفسها كلت من طول الاستعمال .. وكانت القـــذائف تتردد وتسقط فى خطوطنا .. وفى هذه الليلة جرح اثنان من رجالنا بها .

***

ان ميدان القتال بمثابة قفص يحتبس فيه الجندى ويتوقع كل شيء .. فنحن نمكث تحت شبكة القنابل المتقاطعة ونحيا فى قلق دائم .. والحظ وحده الذى يتراوح ويتذبذب فوق رءوسنا .. واذا سقطت علينا قنبلة فكل ما نستطيع فعله هو أن نتنحى وننكمش على نفوسنا .. فليس فى وسع أحد أن يحدد أين تقع ولا أين يكون مستقرها .

وهذا الحظ هو الذى يكسبنا عدم المبالاة وقلة الاكتراث .. فمنذ بضعة أشهر جلست فى أحد الخنادق ألعب الورق مع بعض الزملاء ثم تركت اللعب وذهبت الى خندق ثان لزيارة بعض الاصدقاء .. ولما عدت الى الخندق الاول بعد اتمام الزيارة لم أجد له أثرا ، فقد دمرته القنابل عن آخره . ولما قصدت بعد ذلك الى الخندق الثانى وجدت أصحابه يشقونه من جديد .. فقد ردم فى الفترة التى مضت بين انصرافى وعودتى .

فالحظ هو الحد الفاصل بين الحيـــاة والموت .. وقد يتمزق الجندى اربا فى خندق مسلح مشيد .. وقد يصمد لتدمير عشر ساعات فى خندق مكشوف مفتوح دون أن يصاب بأقل سوء .. وربما لا يحالفنا الحظ كل مرة .. لكننا جميعا نؤمن بالحظ ونثق فيه ثقة عمياء .

***

كان لابد أن نحتاط للخبز الذى معنا .. فقد كثرت الجرذان كثرة مروعة فى الايام الاخيرة بسبب سوء حالة الخنادق . وفسر ديترنج هذه الظاهرة بأنها علامة على قرب حدوث تدمير قوى .

والحق ان الجرذان هنا بشعة ممقوتة . فهى مفرطة السمنة . من النوع الذى يسمى بآكلة الجثث .. ولها وجوه مروعة شنيعة عارية .. ومنظـر اذنابها الطـويلة المجـردة من الشـعر يثير اشد الاشمئزاز ..

كانت هذه الجرذان شديدة الجوع . فقد أعملت أنيابها فى أرغفتنا .. ولما يئس كروب من طردها لف رغيفه فى الشمع ووضعه تحت

راسه .. لكنه لم يستطع أن ينام ، فان الجرذان راحت تقفز فوق وجهه للوصول الى الرغيف .

وأراد ديترنج أن يحتال على الجرذان .. فربط رغيفه فى قطعة من السلك وعلقها فى سقف الخنـدق .. ولما استيقظ فى الليل وصوب ضوء مصباحه الكهربائى رأى السلك يتأرجح ، وقد ركب الرغيب جرذ سمين ! .

قررنا أخيرا أن نضع حدا لهذه الحالة .. ولم يكن بوسعنا أن نرمى الخبز والا حرمنا مما نأكله فى الصباح .. ولذلك انتزعنا فتـات الخبز التى أعملت فيها الجرذان أنيابهـا ، ووضعناها جميعا فى وسط الخندق .. وتناول كل منا مجرفة ووقف على قدم الاستعداد .. بينما حمل ديترنج وكروب وكات مصابيحهم الكهربائية وانتظروا. بقينا هكذا بضع دقائق .. ثم سمعنا صوت أقـدام كثيرة صـغيرة فأضيئت المصابيح فجأة .. وانهال كل منا بمجرفته على هذا العـدو المزعج الذى تدافع مذعورا .. لكن النتيجة كانت طيبة .. وحملنا الجرذان الصريعة وألقيناها خارج الخندق .

كررنا هذه العملية عدة مرات .. لكن الجرذان فطنت الى المكيدة .. ولم تعد الى الظهور .

على اننا لم نجد فى الصباح أثرا لفتات الخبز فى أرض الخندق .

وفى الخندق المجاور هاجمت الجرذان قطتين كبيرتين وكلبا . واخذت تعمل فيها أنيابها حتى قضت عليها . ثم التهمت لحمها .

وفى اليوم التالى أخذنا نتجول فى الخنادق وأشهرنا حربا حامية على الجرذان ..

وردت الينا الذخيرة والقنابل اليدوية بكميات وافرة .. ولما جاء الليل سلط العدو علينا الغازات الخانقة .. فتوقعنا أن يبادئونا بالهجوم بعد هذه الخطوة ، وتمددنا فى الخنادق لابسين الكمامات الواقية من الغازات ، على استعداد لتمزيق أوصال العدو حالما تظهر لنا أشباحه ..

وبزغ الفجر دون أن يحدث شيء .. لكننا كنا نسمع تلك الحركة الدائمة خلف خطوط العدو الدالة على استـمرار حركة النقـل بالقطارات واللوريات .. ورحنا نتساءل عما يدبرونه لنا .. وكانت بطارياتنا تقذف نيرانها بلا انقطاع ، لـكن الحركة لم تتوقف فى صفوفهم .

أخذت تبدو دلائل الاعياء على وجوهنا .. وراح كل منا يتحاشى النظر الى عينى صاحبه .. وقال كات بلهجة التشاؤم :

ــ ستحدث موقعة كموقعة السوم .. حيث ظلت المقذوفات تنهمر علينا سبعة أيام وسبع ليال بلا انقطاع .

ولم يكن لنا أن نكذب كات ، فهو جندى قديم يشم الخطر من بعيد ..

على أن الأيام مرت تباعا دون أن يحدث شيء . ولما جاء دورى فى الحراسة الليلية تسلمت مكانى قرب مدخـــل الخندق ، حيث كانت الصواريخ المعلقة تتطاير واحدا بعد الآخر فى السماء ، ثم تتلاشى بعد قليل .

جلست القرفصاء مرهف الاعصاب خافق القلب .. وكنت أتطلع الى ساعتى المضيئة بين وقت وآخر ، فيخيل الى أن عقربيها لا يكادان يتحركان .. وأخذ النوم يداعب جفنى ، غير انى بذلت ما أملك من جهد لطرده عنى .. ولم يحدث شيء حتى انتهت نوبتى ، ودب الهدوء الى نفوسنا تدريجيـــا ، وأخذنا نلعب الورق ، ورجونا أن يحالفنا الحظ هذه المرة .

وبقيت مناطيد الاستكشاف تحلق فى الفضاء طوال النهار .. وسرت اشاعة تقول بأن العدو سيستعين فى الهجـــوم بالدبابات والطائرات .. لكن مضى النهار دون أن يتحقق شيء من هذا .

استيقظنا فى منتصف الليل .. فـاذا الارض تموج والقـذائف الثقيلة تنهال علينا .. فتسللنا الى الزوايا .. ورأينا القذائف من كل عيار .

وضع كل منا أدواته بجانبه ، وجعلنا نتحقق بين وقت وآخر أنها لا تزال كما هى .. وكانت جدران الخندق تهتز . والدوى يصم الآذان ، والنيران تشق حجاب الظـلام .. وفى فترات الومض كنا نتبادل النظر ، فاذا وجوهنا جميعا شاحبة وشفاهنا مطبقة .. وكل يهز رأسه .

احسسنا جميعا بالقذائف الثقيلة التى تكاد تدك قواعد الخندق وتهدمه فوق رءوسنا .. وما كادت تبدو طلائع النهار حتى غاص الدم من وجوه بعض المتطوعين الجدد واستسلموا للقيء الشديد .. فقد كانت التجربة الاولى أكثر مما تتحمله أعصابهم .

اخذ ضوء النهار يتسرب من مدخل الخندق .. واختلط انفجار

الألغام بقذائف المدافع .. وهذا فى الحق أهول وأفتك شىء فى الحروب واستحالت المنطقة التى كان يتقدم فيها العدو الى مقبرة مروعة .

خرج الجنود المنوبون الى مدخل الخندق .. وعاد زملاؤهم الى الداخل للاستراحة .

كانوا يترنحون ويرتجفون ، وقد تغطوا بالأتربة والوحول . وارتمى أحدهم فى أحد الاركان وراح يأكل فى صمت ووجوم . وجعل آخر ينتحب .. فقد قذفته الهزات العنيفة مرتين خارج الخندق ورأى الموت بعينيه .

وراح المتطوعون الجدد يراقبون الجندى الباكى وهم يرتعدون . ومن حسن الحظ أن ضوء النهار أخذ ينتشر .. فربما تم الهجوم قبل الظهر .

لم ينقطع سيل القذائف .. وكانت تتساقط فى الصفوف الخلفية كذلك . ولم يكن يرى الانسان سوى ألسنة اللهب وأعمدة الوحول .

ولم يحدث الهجوم المنتظر بعد .. لكن انهمار المقذوفات لم يكف ، فكادت تجمد أطرافنا ، ولم يقو أحدنا على الكلام .

ردم خندقنا تدريجيا ، وامتلأ بالحفر والأتربة المنهارة كالجبال . وسقطت قنبلة عند مدخل الخندق مباشرة .. فساد الظلام فى الحال .. ودفنا تحت الارض .. ولم يكن بد من أن نحفر طريقنا الى الخارج والا هلكنا .. ولم تكد تمضى ساعة حتى فتحنا المدخل من جديد .. وأحسسنا ببعض الهدوء لانهماكنا فى هذه العملية .

ثم تسلل قائدنا الى داخل الخندق وأبلغنا ان خندقين ردما عن آخرهما .. وأحس المتطوعون الاحداث بشىء من الطمأنينة والهدوء حيثما رأوا القائد .. وقد قرر لنا انه سيحاول امدادنا بالطعام هذه الليلة .

وجدنا فى هذه الأنباء شيئا من الاطمئنان .. وشعرنا بأننا نوشك أن نتصل بالعالم الخارجى .. ورأى المتطوعون الاحداث انه اذا كان احضار الطعام أمرا ممكنا فان الموقف لا يدعو الى اليأس والتشاؤم .

لكن فشلت جميع المحاولات التى بذلت للخروج واحضار الطعام .. فقدت ارتدت بعثتان بخفى حنين .. ولم يكن نصيب كات حينما خرج بأحسن من سابقيه .. ولو أرسلنا دبابة لما استطاعت أن تنفذ

من هذه الشبكة الجهنمية المضطرمة .

شد كل منا حزامه على بطنه .. وأخذنا نلوك اللقم الباقية فى أفواهنا وقتا طويلا .. لكن ما بقى معنا لم يكف لسد الرمق .. وأحسسنا باشتداد وطأة الجوع .

كان الليل لا يطاق .. ولم نجد الى النوم سبيلا .. بل أخذنا نحدق أمامنا فى ذهول ونغفو قليلا .. وأسف جادن لاننا ألقينا فتات الخبز الى الجرذان .. ولو بقيت لما ترددنا فى أكلها .. ومما زاد الموقف حرجا ان الماء معنا أخذ يتناقص .

وحوالى الفجر حدث فى الخندق هرج شديد .. فقد اندفعت من المدخل جيوش الجرذان الهاربة محاولة أن تتسلق الجدران .. وسرعان ما أضيئت المصابيح الصغيرة وارتفعت الصرخات واللعنات وأنهمكنا جميعا فى القتل والتذبيح .. والواقع ان عذاب الساعات الطويلة الماضية قد وجد الآن سبيلا للتشفى والانفجار .. وكانت وجوهنا متقلصة ، وسواعدنا تصعد وتهبط والجرذان تصرخ .. وكدنا مرات نشج رءوس بعضنا البعض .

أنهكت هذه المعمعة قوانا .. فركعنا فوق الارض ، وعدنا الى انتظارنا السابق .. ولا ريب ان نجاة خندقنا من التدمير حتى الآن هو معجزة من المعجزات .

زحف الى الخندق « أونباشى » حاملا رغيفا كبيرا .. وعلمنا انه تيسر لثلاثة رجال أن يتسللوا ليلا الى الميدان ويعودوا بشىء من المؤونة .. وقرروا ان النيران تنصب فى كافة النواحى حتى تصل الى خطوط المدفعية .. ورحنا نتساءل من أين يأتى العدو بكل هذه المقادير الهائلة من المقذوفات التى يمطرنا بها باستمرار .

انتظرنا طويلا .. وحدث حوالى الظهر ما كنت أتوقعه .. فقد أصيب أحد المتطوعين الاحداث بنوبة .. وكنت أراقبه منذ فترة طويلة .. فرأيته يصر على أسنانه ويفتح ويغمض عينيه بلا انقطاع . وكانت هذه الاعراض معروفة لنا .

ولم يلبث أن نهض ، وتسلل الى ناحية المدخل ، فاعترضت طريقه وسألته الى أين يذهب ، فأجاب قائلا :

ــ سأعود بعد دقيقة .

وحاول أن يزيحنى من طريقه ويمر .. فقلت له :

ــ انتظر قليلا .. ستنتهى الغارة قريبا .

اصغى الى لحظـة وبدت فى عينيه دلائل الهدوء .. وفجأة ظهرت عليه امارات الهياج ودفعنى عن طريقه . فقلت له :
ـ انتظر لحظة .

رآه كات وهو يدفعنى .. وما كاد يبتعد خطوات حتى وثبنا اليه معا وأمسكنا به ..

ثارت ثائرة الفتى فى الحال وصاح :
ـ اتركونى .. اتركونى .. سأخرج ؟ .

لم يصغ الينا الفتى .. وحاول أن يتملص من أيدينا ، وكان الزبد يخرج من شدقيه والكلمات تتدافع من فمه مختلطة مختنقة لا معنى لها ..

كانت هذه النوبة معروفة فى الخنادق .. والمصاب بها يحس بالاختناق ويحاول الخروج بأى ثمن .. ولو تركناه يخرج لركض فى كل مكان دون أن يعبأ بالاحتجاب والاحتماء من القنابل المتطايرة .. ولم تكن حالته هى الاولى ..

اضطررنا الى توجيه ضربات شديدة سريعة اليه حتى أفاق من نوبته وجلس فى هدوء .. وجعل زملاؤه يتطلعون اليه وقد امتقعت وجوههم ، فرجونا أن يكون فى هذا الدرس عبرة لهم . والواقع أن هذه الغارات التدميرية الهائلة هى أكثر مما تحتمله أعصاب هؤلاء الفتيان البؤساء ، فقد جىء بهم رأسا من ميدان التدريب الى هذا الجحيم الذى تشيب منه رءوس الجنود القدماء المحنكين .

ثم أخذ الجو الفاسد يخنق أنفاسنا ، وكنا فى هذا المكان أشبه بأناس جلسوا ينتظرون الموت .

وفجأة أخذ سيل القنابل ينهمر بشكل جنونى ، وأصيب الخندق بقنبلة كانت خفيفة لحسن الحظ .. غير انها هزت جدرانه هزا عنيفا .. وراحت البنادق والخوذات والطين والاتربة تتطاير جميعا فى كل مكان . ولو كان هذا الخندق من الخنـادق السطحية غير العميقة لما بقى واحد منا على قيد الحياة .

على ان تأثير هذه القنبلة كان سيئا ، فقد عاودت النوبة الفتى المتطوع ، وانتابت على الأثر زميلين آخرين ، ووثب أحدهما واندفع الى الخارج ، وأنهمكنا فى تسكين الباقين .. وأسرعت خلف الفتى الهارب ونفسى تحدثنى باطلاق رصاصة على ساقه حتى استوقفه . وفى هذه اللحظة تساقطت القنابل والمدمرات من جديد ، فألقيت

بنفسي على الارض .. ولما نهضت كان جدار الخندق ملطخا بالشظايا وكتل اللحم المتناثرة التى استحال آليها جسد الفتى التعس .

وبدا لنا ان المتطوع الاول الذى استفتح هذه النوبات قد فقد صوابه وجن جنونه تماما .. فقد راح ينطح الجدار برأسه كالعنزة .. فاضطررنا لتقييده تقييدا خفيفا حتى يتسنى تحريره وقت الهجوم . واستقر الرأى على أن نعيده هذه الليلة الى الصفوف الخلفية .

اقترح كات أن نلعب الورق . وكان الغرض من هذا أن نتشاغل بشىء يهدىء أعصابنا ويخفف عنا الى حد ما . لكن ذهبت محاولتنا عبثا . فقد كنا نقطع اللعب وننصت لكل قنبلة تنفجر قربنا . وتركنا اللعب أخيرا .

أقبل الليل من جديد . وبلغ توتر أعصابنا منتهاه .. وتصلبت أقدامنا . وارتعدت أيدينا . وغلت مراجل الغضب والهيــاج فى نفوسنا . ولم نقو على تبادل النظــرات . وضغط كل منا على أسنانه .

وفجأة انقطع انفجار القنابل قربنا . ومع ان المقذوفات بقيت تنهمر الا أنها أخذت تتساقط فى الصــفوف الخلفية وجاوزت خندقنا . وسرعان ما حملنا القنابل اليدوية ووضعناها على حافة الخندق ووثبنا فى أثرها . وكانت القذائف المدمرة قد انقطعت الآن ، واخذت مدافع العدو تقذف نيرانها خلفنا . وبدأ الهجوم .

كان من المستحيل أن يصدق الانسان بوجود أفراد على قيــد الحياة فى هذا الأتون المستعر .. لكن الخوذ الحديدية أخــذت تبدو من كل مكان على امتداد خنادقنا .. ورأينا أحد مدافع الماكينات يرسل نيرانه الحامية عن بعد نحو أربعين مترا أمامنا .

كانت الاسلاك الشائكة قد تقطعت وتهدلت . لكنها بقيت تقوم حائلا دون العدو .. ورأينا طلائع الاعداء القادمين نحونا .. ففتحت مدافعنا أفواهها .. وتدفق الرصاص من بنادقنا .. وفعلت قذائفنا فى صفوفهم فعلها .. وبدأ هاى وكروب بالقاء القنابل اليدوية .. وراحا يقذفانها بأقصى سرعة ، وكان بعضنا يناولهما اياها وهما يتوليان عملية القذف ببراعة .. وكان هاى يقذف على مسافة ستين مترا ، وكروب على مسافة أربعين . والواقع ان تحديد المسافة فى هــذا الظروف له قيمته الكبيرة .. ولم يكن فى وسع جنود العــدو

وهم يركضون الينا ان يفعلوا شيئا هاما قبل أن يصيروا على بعد ثلاثين مترا .

عرفنا الوجوه المتقلصة .. والخوذات المسطحة .. فقد كانوا فرنسيين .. ولما وصلوا الى منطقة الاسلاك الشائكة كانت خسائرهم قد بلغت مبلغا جسيما .. وسقط صف كامل منهم تحت نيران مدافع الماكينات .. على انهم ظلوا يتقدمون .

رأيت واحدا منهم يتعثر فى الاسلاك اذ كان رافعا رأسه الى أعلى .. ولما سقط جسده بقيت يداه مرفوعتين كأنه يصلى .. ثم هوى جسده وحده وبقيت يداه معلقتين فى السلك بعد أن بترتهما القذائف بترا .

وفيما نحن نهم بالتراجع برزت من الارض ثلاثة وجوه . ورأيت وجها ذا لحية مدببة وعينين نفاذتين يطل على . وكانت المجزرة الهائلة تدور حولى على أشدها ، وبقى هذا الوجه يحدق الى بعينيه دون أن يتحرك .. وما أن ارتفع عن الارض حتى طارت قنبلتى فى لحظة وانفجرت عنده .

أخذنا نتراجع الى الخطوط الخلفية . ورحنا نجذب الاسلاك الشائكة حول خنادقنا ونترك عندها قنابل على أهبة الانفجار ، حتى نضمن التقهقر بانتظام . وأخذت مدافع الماكينات فى هذا الوقت تعمل بنشاط من المنطقة التى تلينا .

كنا فى هذا الوقت حيوانات متوحشة . لم نكن نقاتل . بل رحنا ندافع عن أنفسنا أمام الموت الذى يطبق علينا .

لم نكن نقذف قنابلنا فى وجوه رجال من بنى البشر . فقد كانوا فى نظرنا فى هذا الوقت رمزا للموت له أيد وخوذات يتعقبنا ويروم حتفنا .

وللمرة الاولى منذ ثلاثة أيام تسنى لنا الآن ان نرى وجه الموت وأن نقاومه .. وأحسسنا بالغضب يضطرم فى صدورنا . ولم نعد الآن عاجزين مقيدين كما كنا من قبل ، بل رحنا نمحق ونقتل وندمر انقاذا لأنفسنا وثأرا لما نالنا .

وفى أثناء التقهقر كنا نقف عند كل ركن ، وخلف كل كوم من الاسلاك الشائكة . فنقذف أكواما من القنابل عند أقدام العدو قبل ان نركض متراجعين . ورحنا نعدو الى الامام منكمشين كالقطط وقد طغت علينا موجة من الوحشية الهائلة جعلتنا فى طرفة عين

مخلوقات شيطانية وقتلة سفاكين . وكانت هذه الموجة تضاعف قوانا وتزيدنا خوفا وجنونا وظمأ الى الحياة ، لا نقاتل ولا نبذر الهلاك الا من أجل أنفسنا وصونا لحياتنا . ولو رأى احدنا أباه فى صفوفهم ما تردد فى قذف قنبلة فى وجهه .

أخلينا الخنادق الأمامية التى دمرت عن آخرها واستحالت أكواما من الاتربة والحفر . لكن خسائر العدو كانت تتزايد .. ولم يقدروا اننا سنصمد لهم ونبدى مثل هذه المقاومة العنيفة .

***

انتصف النهار .. واشتدت حرارة الشمس .. وأخذ العرق يلذع أعيننا .. فرحنا نجففه بأكمامنا ، واذا هى تتلوث بالدماء السائلة فوق جباهنا . ثم وصلنا اخيرا الى صف من الخنادق فى حالة صالحة فيها رجال وسلاح ، وعلى استعداد لصد هجوم العدو . فنزلنا فيها . وتفتحت مدافعنا بنيران حامية لوقف الهجوم .

وقفت صفوف المهاجمين .. وعجزوا عن التقدم أكثر من هذا القدر .. وسحقت مدفعيتنا هذا الهجوم سحقا .. وكنا نراقب من اماكننا النيران الصادرة من مدافعنا وهى تنصب على بعد مائة ياردة الى الأمام .. فاندفعنا فى حمايتها نطارد العدو .. ورأيت بجانبى جاويشا يجرى وقد تمزق رأسه .. وبعد بضع خطوات تدفق الدم من عنقه كأنه نافورة .. ثم سقط على الارض .

لم نلتحم مع الاعداء وجها لوجه .. فقد ارتدوا على اعقابهم . ووصلنا ثانية الى خنادقنا المدمرة وجاوزناها الى الامام .

اندفعنا فى وحشية وغضب وجنون .. ولم يكن لنا مفر من أن نعمل فى المتقهقرين قتلا وتمزيقا . فهم أعداؤنا الألداء .. وكانوا يصبون الينا بنادقهم ويقذفوننا بقنابلهم . واذا لم نهلكهم أهلكونا .

كنا نركض الى الأمام بين صرخات الجرحى الممددين على الارض الذين كانوا يتشبثون بأقدامنا وقد اقفرت نفوسنا من كل شعور انسانى .

كنا فى هذا الوقت اشباحا متحجرة القلوب ميتة الاحساس .. نعدو ونبذر الهلاك ذات اليمين وذات الشمال .

تخلف جندى فرنسى عن زملائه رافعا مسدسه ، ربما للهجوم أو للتسليم .. وفى اللحظة التالية هوت مجرفة حادة فشطرت وجهه .

وحاول زميل له أن يفلت . وما كاد يستدير حتى استقر سونكى فى ظهره . فوثب فى الهواء صارخا رافعا ذراعيه الى أعلى . ثم هوى الى الارض وما زال السلاح مغمدا فى جسده .. وألقى ثالث بندقيته على الارض وجلس مستسلما وحجب وجهه بيديه .. فتركناه خلفنا مع زملاء له من الأسرى ، لنقل الجرحى واسعافهم .

وفيما نحن منهمكون فى المطاردة وصلنا فجأة الى خطوط العدو فى أعقابهم مباشرة . وبهذه الكيفية لم نتعرض لخسائر كبيرة . وصوبوا الينا أحد مدافع الماكينات . لكن قنبلة من رجالنا أسكتته فى الحال . لكنه كان قد أصاب قبل اسكاته ستة منا بجراح بالغة . وأهوى كات بقاعدة بندقيته على راس أحد رجال المدافع الذى لم يجرح .. فجعله كتلة مختلطة من اللحم والدم . وأغمدنا حرابنا فى صدور الباقين قبل أن يتمكنوا من القاء قنابلهم اليدوية .. ثم أهوينا على الماء الذى كان قربهم لتبريد المدافع ، فأطفأنا به نيران عطشنا .

أخذت قاطعات الاسلاك الشائكة تعمل بنشاط .. ومدت الالواح فوق لفائف الاسلاك ، ووثبنا من هذه الفتحات الى خنادق الاعداء . وأهوى ديستوس بمجرفته على عنق جندى فرنسى ضخم وقذف قنبلته اليدوية الأولى .

انكمشنا بضع ثوان خلف أحد الجدران . ثم رأينا هذا القسم خاليا أمامنا .. فقذفنا قنبلة ثانية عند نهايته . وأحدثنا طريقا الى الخندق المجاور .. وجعلنا نقذف القنابل أمامنا واحدة بعد الاخرى .. فكانت الارض تهتز ، والجدار تنهار .. والانات تتصاعد .. وجعلنا نتعثر أثناء تقدمنا فى كتل اللحم والجثث الممزقة .. وفيما كنت أسير سقطت فى بطن مبقورة .. وتبينت ان صاحبها ضابط فى عنفوان الشباب .

انتهى القتال .. ولم نعد نرى أثرا للعدو .. ولم يكن يمكن أن نبقى هنا طويلا .. وكان لابد أن نتراجع الى خطوطنا تحت حماية المدفعية .. وما كاد الرأى يستقر على هذا حتى اندفعنا فى أقرب خندق وحملنا ما استطعنا حمله من علب اللحم والزبد .

عدنا فى سلام .. ولم يبادئنا العـدو بهجوم جديد .. وتمددنا على الارض ساعة نلهث ونستريح دون أن ينبس أحدنا بكلمة واحدة .. والحق اننا كنا فى أشد حالات الاعياء والجهد حتى اننا لم نفكر فى المؤونة رغم اشتداد جوعنا .. وأخيرا عدنا الى الوعى واصبحنا

أقرب الى الانسانية من جديد .. واخذنا نلتهم الطعام الذى غنمناه من خنادق الاعداء .

***

توالت الأيام ، وتعاقبت الساعات العصيبة ، حتى اصبحت من قبيل المألوف .. وتكرر الهجوم ، والدفاع ، والهجوم المضاد .. وفى أثناء ذلك كله كان عدد القتلى يتزايد ، والجثث تتكدس فى الحفر التى تحدثها المقذوفات .. وقد تيسر لنا أن ننقل الجرحى الذين سقطوا فى امكنة قريبة من مواقعنا .. لكن كثيرين بقوا فى وسط الميدان لبعدهم عنا واستحال الاتصال بهم ، وكنا نسمع أصواتهم وهم يتأوهون ويعالجون سكرات الموت .

كان الطقس حارا وجثث القتلى متناثرة فوق سطح الارض حول الخنادق ، ولم يكن يتيسر لنا أن نحملها الى حيث نحن لعبث هذه المحاولة وعقمها .. وتركنا للقذائف مهمة دفنها فى بطن الارض . وكانت بطون بعضها قد انتفخت واخذت الغازات المتكونة فيها تحدث اصواتا كفحيح الافاعى .. وكلما هبت الريح علينا حملت الى أنوفنا روائح الدم والتعفن ، فنكاد نصاب بالدوار والقىء .

اخذت حدة القتال تخف ليلا .. وكان الهدوء التام يسود أحيانا فيخرج بعضنا لالتقاط المظلات الحريرية الصغيرة المتساقطة من الصواريخ المعلقة ، لنستخدمها كمناديل .

وفى صباح احد الأيام رأينا فراشتين تحومان حول الخندق . فتملكنا العجب لانعدام النبات والازهار فى محيط يبلغ بضعة أميال .. ثم استقرت الفراشتان فوق احدى الجماجم .. والواقع ان الفراش ، مثلنا قد ألف الحرب ، ولم يجد فى جوها القاتم الدامى ما ينفره منها .

ولم تعد الجرذان تظهر فى الخنادق .. فقد اخذت تمرح بين جثث القتلى ، وتضخمت أجسامها .

ومن طريف ما كنا نشاهده ، تلك المعارك الجوية التى كانت تنشب بين طيارينا وطيارى العدو .. فهى معارك حافلة بالمفاجآت .

والواقع اننا نقمت من كل قلوبنا طائرات الكشف والاستطلاع . فهى ترشد العدو الى مواقعنا..ولا تكاد تبتعد عنا حتى تنهمر علينا القذائف كالسيل .. وذات يوم خسرنا احد عشر من رجالنا، بينهم خمسة من جنود النقالات .

واخيرا أمطرنا العدو فجأة بقنابله من جديد .. وعدنا الى حالة التوتر والجزع التى تصحب هذه الغارات .

خسرنا عددا كبيرا من رجالنا ، أغلبهم من المتطوعين .. وسدت الثغرات فى صفوفنا بسرية جديدة مؤلفة من الفتيان الاحداث الذين جندوا أخيرا .. ولم يكونوا قد تدربوا بعد التدريب الكافى ، بل ارسلوا الى الميدان وهم لا يفقهون من فنـــون الحرب الا معلومات نظرية .. صحيح أنهم كانوا يعرفون ما هى القنبلة اليدوية ، لكنهم لم يكونوا يدرون الا قليلا عن وسائل الاحتماء من القذائف المتفجرة ، وهى مسألة حيوية خطيرة تتوقف عليها حياة الجنود فى الميدان .

ومع أننا كنا فى حاجة ماسة الى هذه الامدادات ، فان المتطوعين الجدد كانوا عقبة فى سبيلنا ، ولم يقدموا لنا المعاونة المنشودة .. فقد سقط فى أيديهم حالما وصلوا الى هذا الأتون المتقد ، واخذوا يخرون صرعى كالفراشات حول النار .. والواقع ان حروب الخنادق الحديثة تتطلب توفر المعرفة والخبرة .. ولابد للجندى أن يكون ملما بأحوال الارض التى ينكمش فوقها ، قديرا على التمييز بين مختلف أنواع القنابل والمقذوفات ، وأن يعرف سلفا مرمى القنبلة قبل سقوطها ، وكيف تنفجر ، وكيف يحتمى منها .

لـكن المتطوعين الأحداث لا يعرفون شيئا من هذا بالطبع .. وكانوا فوق جهلهم هذه الحقائق يجتمعون معا كقطعان الغنم بدل التفرق فى مختلف الجهات ، فيحصدهم الموت حصدا .

كانت لهم وجوه ساذجة بريئة كوجوه الاطفال .. والحق انهم كانوا يتقدمون مستبسلين معرضين صدورهم للموت الذى يحصدهم بلا رحمة . وكانوا اذا جرحوا وتحطمت عظامهم وشقت بطونهم وبترت أطرافهم ، يتوجعون وينادون أمهاتهم بأصوات مؤثرة تمزق القلوب .

ان الانسان ليرثى لمشهد هؤلاء الفتيان وهم يتقدمون الى الموت ويسقطون واحدا بعد الآخر .. وكم يود لو يأخذ بأيديهم ويبعدهم عن هذا المحيط الذى لا يمتون اليه بأقل سبب .

كانت الملابس العسكرية فوق أجسادهم رحبة فضفاضـــة . ولم تخلق بعد نمـــــاذج الكسى العسكرية التى تطابق هـــذه الاجساد الضئيلة .

وكان يموت منهم عدد يتراوح بين الخمسة والعشرة فى مقـــابل جندى واحد من القدماء .

وقد قضت احدى غارات الفازات الخانقة الفجائية على عدد كبير منهم .. فهم لم يتدربوا بعد على كيفية اتقاء الخطر فى أمثال هذه المواقف . ووجدنا أحد الخنادق مملوءا بعدد كبير منهم وقد تكدسوا فوق الارض ، زرق الوجوه ، سود الشفاه . . وفيماكان بعضهم فى احدى حفر القنابل سارع برفع الكمامات الواقية من الفازات الخانقة قبل أن يتحقق من زوال الفازات .. فهم لم يعرفوا ان الفازات تستقر مدة أطول فى الحفر والمنخفضات .. ولما رأوا زملاءهم فوق سطح الارض يرفعون كماماتهم اقتدوا بهم واستنشقوا هواء خانقا فيه الموت الزؤام .

واندفعت مرة الى أحد الخنادق أثناء احدى الفارات التى شنها علينا الاعداء ، فاذا أنا اصطدم فجأة بهملستوس .. وانكمشنا جميعا متلاصقين محتبسى الانفاس حتى انجلى الخطر .

ولما هرعنا من الخندق تذكرت هملستوس رغم شدة انفعالى .. فعدت مسرعا الى الخندق ووجدته ممددا فى أحد الاركان متظاهرا بأنه جريح ، ولم يكن به فى الواقع سوى خدش يسير .

كانت تبدو على وجهه دلائل السخط والجزع ، فهو حديث عهد بهذه التجارب أيضا .. لكن شق على أن أراه يتخلف فى الخندق فى حين خرج الفتيان الاحداث لمواجهة الموت .. قلت له باحتقار :

ــ أخرج .

لم يتحرك ، بل انكمش فى مكانه مرتجف الشفتين والشاربين .. ولما رددت كلمتى زاد انكماشه والتصاقه بالجدار ، وانفرج فمه عن أسنانه كالكلب الجبان .. فجذبته من ذراعه وحاولت اخراجه .. لكنه أخذ ينبح ! ..

كان هذا أكثر مما أطيق احتماله .. وسرعان ما قبضت على عنقه وأخذت أهزه هزا عنيفا وأضرب راسه بالجـدار وأركله بقدمى . ورحت أقول له :

ــ أخرج أيها الجبان .. ! اخرج أيها الخنزير الحقير .. ! هنا تظهر الرجولة .. لا فى ميدان التدريب .

ودفعته دفعا الى باب الخندق .

فى هذا الوقت كان دورنا فى الهجوم على الأعداء قد حل ، ولما رآنا أحد الضباط صاح فينا بأعلى صوته :

ــ الى الأمام . ! الى الامام . ! انضموا الى الصفوف . ! أسرعوا .

فعلت كلمات الامر فى نفس هملستوس ما لم يفعله تحقيرى وتوبيخى . فانه ما كاد يسمع هذه الأوامر حتى التفت حوله كأنما افاق من نوم ، وسار الى الأمام .

سرت فى أثره وجعلت أراقبه .. وسرعان ما أصبح هملستوس الذى عرفناه فى ميدان التدريب .. واندفع الى الامام حتى سبق الضابط نفسه .

***

التدمير .. الألغام .. الغازات .. الدبابات .. مدافع الماكينات .. القنابل اليدوية .. هذه كلها مجرد كلمات يمر بها القارىء مرورا . لكنها تنطوى فى نظرنا على أبشع الأهوال وافدح الكوارث والخطوب .

كانت وجوهنا مغطاة بالوحل والطين . وأفكارنا مشردة . وعقولنا ذاهلة .. وقوانا خائرة .. وأعصابنا محطمة . وأعيننا ملتهبة . وأيدينا ممزقة . وركبنا دامية .

لم تستغرق هذه الملاحم المروعة سوى ايام معدودة كانت فى حسابنا بمثابة السنين .. وكنا نزدرد الطعام ونحن نركض ، ونقذف القنابل ، ونطلق الرصاص ، ونقتل ، ونستلقى على الارض احتماء أو اعياء .. وما كان يشحذ عزائمنا ويجدد قوانا سوى علمنا بأن هناك من هم أشد منا ضعفا واعياء .. هم أولئك الفتيان الاحداث الذين طوحت بهم الاقدار الى هذا الجحيم .

واخذنا على عاتقنا فى ساعات الراحة القليلة ان نلقن هؤلاء المساكين ما ينقصهم من المعلومات الضرورية . فبينا لهم وجوب ارهاف الاذن لأصوات القنابل الخفيفة التى تصفر صفيرا خافتا يكاد يغيب فى ضجيج الجلبة السائدة . فان هذا النوع من القنابل أشد خطرا من القنابل الثقيلة التى يمكن سماع صوتها قبل اقترابها بزمن كاف .

وجعلنا نشرح لهم كيف يحتمون من الغارات الجوية . وكيف يحسن بهم ان يتظاهرا بالموت اذا ادركهم العدو . وكيف يقذفون القنابل اليدوية فى الوقت المناسب بحيث تنفجر قبل اصطدامها بالارض بثانية واحدة .. وعلمناهم كيف يثبون الى الحفر اسرع من البرق قبل أن تدركهم القنابل .. وكيف يميزون بين أصوات القنابل المدمرة وقنابل الغازات الخانقة .. وبالاجمال شرحنا لهم

كافة المعلومات والحيل الضرورية التى يتوسلون بها للافلات من براثن الموت .

وكانوا ينصتون الينا فى طاعة ووداعة .. لكن ما تكاد الفارات تبدأ من جديد حتى يعتريهم الانفعال وينسوا كل شىء .

وأصيب هاى ديستوس بجرح خطير فى ظهره اتصل برئتيه حتى كاد يستحيل عليه أن يتنفس .. ولم أملك الا ان أشد على يده مواسيا مشجعا .. غير انه قال وهو يتوجع ويعض ذراعه المــا :

ــ أنا انتهيت .. يابول ! .

ورأينا رجالا أحياء شجت جماجمهم .. وجنـــودا بلا أقدام يركضون فوق سيقانهم المبتورة الدامية لاجئين الى أقرب حفرة .. وشاهدنا جاويشا يزحف ميلا ونصفا وهو يجر خلفه ركبته المهشمة .. وذهب آخر الى المستشفى وهو يضغط بيديه على أمعائه التى كانت تنزلق بينهما ، والتقينا برجال بلا أفواه ، ولا فكاك ، ولا وجوه، ورأينا رجلا ممسكا شريان ذراعه بين أسنانه ساعتين كاملتين حتى لا يتدفق دمه ويخر صريعا . ولا تكاد الشمس تغرب والليل يرخى سدوله حتى يبدأ المحق والتدمير من جديد ، وتزهق الأرواح .

وبرغم هذا كله فقد استطعنا ان نصمد وأن نحتفظ بمواقعنا . ولم يغنم منا العدو سوى مساحة يسيرة لا تتجاوز بضع مئات من الأمتار .. ولكن فى كل متر منها رجلا صريعا .

***

انتهت نوبتنا فى الميدان .. وذهبنا للراحة .. ووقفنا مضعضعى الحواس فى اللوريات التى أقلتنا من ميدان القتال .

كان الوقت صيفا حينما ذهبنا الى الميدان .. أما الآن فقد اقبل الخريف وتجردت الاشجار وتشبع الجو بالرطوبة البليلة .

ولما وقفت اللوريات انحدرنا منها خليطا من كافة الفصـــائل والكتائب . ووقف على الجانبين رجال ينادون فى الظلام اســماء الفصائل والكتائب .. فينفصل من الجمع فى أثر كل اسم عــدد ضئيل لا يتجاوز أصابع اليدين من جنود قذرين شاحبين هم البقية الباقية من كل فصيلة ممن لم تمتد اليهم يد الهلاك .

ونادى مناد أسم كتيبتنا . فاذا هو قائد الكتيبة . وقد نجا من الموت . ولـكنه أصيب بجرح فى ذراعه التى شدت الى صدره بالاربطة واللفائف .

ذهبنا اليه . وعرفت كات والبرت كروب . فوقفنا معا . واستند كل منا الى صاحبه . واخذنا نتبادل النظرات فى صمت وسكون .

تكررت مناداة كتيبتنا مرات . لكن الغائبين لن يسمعوا بعد أن ذهبوا الى المستشفيات أو قبروا فى حفر القنابل .

قال القائد اخيرا فى صوت خافت :

ـ الكتيبة الثانية .. من هنا .. ألا يوجد احد آخر من رجال الكتيبة الثانية ؟ .

وصمت القائد .. ثم قال فى استياء :

ـ هل هؤلاء هم كل من هناك ؟ .

وأصدر القائد أمرا بالعد .. ففعلنا .

جاءت كتيبتنا كاملة الى الميدان ، مؤلفة من مائة وخمسين جنديا .

ولما أخذنا نعد استقر الرقم عند ٣٢ .. وانقضت فترة صمت طويلة قبل أن يحاول القائد الكلام قائلا :

ـ ألا يوجد أحد آخر ؟ .

انتظر القائد لحظة وقال :

ـ اربعات ! . . .

لكن الصوت احتبس فى حلقه . وقال اخيرا بعد جهد :

ـ الكتيبة الثانية ! . خفيفا سر ! .

وتقدم فى ضوء الفجر الشاحب صف قصير .. قوامه اثنان وثلاثون رجلا .

الفصل السابع

ذهبنا الى نقطة عسكرية بعيدة لاعادة تنظيم الكتيبة التى كانت تفتقر الى أكثر من مائة جندى .

وانضم الينا هملستوس بعد يومين . وفارقه الغرور السابق منذ ذهابه الى ميدان القتال ، وأراد أن يوطد صلاته بنا . ولم أعارض فى ذلك بعد أن رأيت كيف حمل هاى ديستوس الى الخنـدق على أثر اصابته التى نالها فى ظهره . وفوق هذا فقد أخذ يتودد الينا ويتلطف معنا فى (الكانتين) كلما احتجنا الى شيء . ولم يبق على تحفظه معه وارتيابه فيه سوى الزميل جادن .

لكن ما كاد هملستوس يبلغنا انه حل محل امين المطبخ الذى ذهب فى أجازة حتى اكتسب ثقة هاى ديستوس أيضا . وقدم لنا على الأثر رطلين من السكر واهدى جادن خاصة نصف رطل من الزبد وفى الايام التالية راح يسخو معنا فى توزيع الطعام حتى كان كل منا يفوز بنصيب ضابط .

وهكذا توافر لنا فى الوقت الحالى كل ما يشتهيه الجندى ، أى الطعام الطيب والراحة . وليس هذا كثيرا بالقياس الى ما كابدناه . ولو حدث هذا منذ بضع سنوات ماضية لاحتقرنا أنفسنا . أما الآن فكنا سعداء بهذه الحال . وكل شيء فى الحياة يغدو مألوفا بفعل العادة ، حتى ميدان القتال .

والواقع ان العادة هى التى تفسر لنا كيف ننسى الحوادث بمثل هذه السرعة . فبالامس كنا تحت وابل من النيران .. بينما نحن اليوم نلهو ونعبث ونمرح فى مروج الأرياف . وغدا سننشد الرحال ونعود الى الخنادق ثانية . ونحن لا ننسى شيئا أبدا .. وما دمنا سنبقى فى هذه البقعة الهادئة أياما ، فان ذكريات أيام الميـدان التى مرت بنا لا تلبث أن تهبطوتسـتقر فى زوايا أذهاننـا . وما كابدناه فيها من المرارة والهول لا يغرينا باستعادة صورها

والتفكير فيها فورا . ولو فعلنا لتحطمت اعصابنا وقضى علينا بالجنون منذ أمد بعيد . واستخلصت من التجارب هذه الحقيقة : وهى ان الاهوال يمكن احتمالها اذا طرحها الانسان من ذاكرته . لكنها تقتله اذا فكر فيها .

وكما أننا فى ميدان القتال ننقلب الى حيوانات ضارية لأن فى هذا وحده نجاتنا ، فكذلك نستحيل وقت الراحة أشخاص ماجنين متعابثين .. وليس فى وسعنا أن نفعل غير هذا .. فهكذا قضت الضرورة علينا أن نفعل ..

نحن نريد أن نعيش بأى ثمن . فلا يمكن أن نثقل أنفسنا باحساسات قد تغدو براقة وقت السلم ، لكنها هنا فى الميدان نابية لا محل لها .

ان كمريخ قد توفى .. وهاى ديستوس على وشك الموت .. وقد مات كثيرون من زملائنا وأصدقائنا .. وهناك من جرحى كتيبتنا عدد كبير تفرقوا فى المستشفيات .. فهذه نتيجة مروعة ونهاية مؤلمة .. لكن هل نملك لهم الآن نفعا أو ضرا ؟ . اننا أحياء وكفى .. ولو كان فى مقدورنا انقاذهم واسعافهم ، أو لو كان فى افتدائهم حياة لهم ، اذن لجدنا بأرواحنا رخيصة فى سبيلهم .. لكن هيهات .

ان من مات مات .. ومن جرح جرح .. ولا حيلة فى القضاء . هم استراحوا .. ومن يدرى ماذا خبىء لنا فى عالم الغيب ؟

فلا يسعنا اذن ألا أن نطيب نفسا وننام ونأكل ، وأن نشرب وأن ندخن ، بحيث لا تذهب الساعات هباء .. فان الحياة قصيرة ..

***

ان أهوال الميدان تندس فى أعماق نفوسنا حينما ندير ظهورنا اليه . لكننا لا ننسى .

وهناك حقيقة ثابتة أقررها .. فان هذه الذكريات المروعة التى تندس فى نفوسنا طالما كانت الحرب دائرة ، ويخيل للانسان انها خمدت ، لن تلبث أن تستيقظ بعد الحرب وتحيا فى أذهاننا من جديد .. وعند ذلك يبعث الماضى من أكفانه .. وتكر الايام والاسابيع والاعوام التى قضيناها فى ميدان القتال .. وينهض زملاؤنا الموتى من مراقدهم ويسيرون معنا جنبا الى جنب .. وتصفو أذهاننا وتتحدد غاياتنا .. وهكذا نزحف والى جانبنا رفقاؤنا الموتى وخلفنا

سنوات الميدان المروعة .. ولكن ضد من يكون هذا الزحف ؟ والى من يوجه ؟ .

***

كانت المساكن التى نزلنا فيها قائمة على احدى ضفتى قناة ، وهى مساكن هجرها أصحابها . أما فى الضفة الثانية فكنا نلمح أحيانا بعض السكان .

ولما جاء المساء ذهبنا للاستحمام فى القناة .. فرأينا ثلاث نساء يسرن الهوينا على الضفة .. ولم يحولن أنظارهن عنا برغم اننا لم نكن نرتدى ملابس الاستحمام .

ناداهن لير .. فضحكن ووقفن يراقبننا . وسرعان ما أخذنا نقذفهن بكلمات فرنسية متقطعة مختلطة ، بقصد استيقافهن .

وصحيح أنهن لم يكن على حظ وافر من الجمال .. ولكن كيف السبيل الى خير منهن فى مثل هذه الجهات ؟ .

كانت احداهن نحيلة القوام سمراء اللون ، تلمع أسنانها اذا افتر ثغرها .. وأخذنا رغم برودة الماء نبدى لهن كل تودد ممكن ، وبذلنا كل جهد لاثارة اهتمامهن حتى يبقين قليلا .. ورحنا نوجه اليهن النكات والدعابات .. فكن يجبن بكلام لا نفهمه .. وجعلنا نضحك ونشير اليهن .. وكان جادن أشد مكرا ودهاء .. فانه أسرع الى بيتنا وأحضر رغيفا كبيرا من خبز الجيش ، وأمسكه فى يده .

أحدث الرغيف تأثيرا كبيرا .. فأومأن برءوسهن وأشرن الينا أن نقترب من ناحيتهن .. لكننا لم نجرؤ .. فقد كان العبور الى الضفة الثانية محظورا .. وهناك حراس منتشرون يستحيل المرور بينهم الا باذن خاص .. ولذلك أشرنا اليهن أن يأتين الى ناحيتنا .. لكنهن هززن رءوسهن وأشرن الى الكوبرى حيث يوجد الحراس . فقد كان العبور محظورا عليهن أيضا .

استأنفت النساء الثلاث سيرهن .. وتابعناهن سباحة .. ثم وقفن بعد مسيرة بضع مئات من الامتار وأشرن الى منزل قائم على مسافة قصيرة بين الاشجار .. ففهمنا انهن يقمن فيه .

اتفقنا على زيارتهن هذه الليلة منتهزين فرصة الظلام حتى لا يرانا الحراس .. وقال احداهن متلعثمة :

— لا تنسوا الخبز ..

اكدنا لهن أننا سنحضر معنا خبزا ومأكولات أخرى لذيذة حاولنا أن نسميها بأيدينا .. وكاد لير يغرق وهو يحاول أن يفهمهن بالاشارة انه سيحضر معه شيئا من السجق .. ولو كان الامر بيدنا لأحضرنا لهن مخزن المؤونة بتمامه .. وأخيرا ذهبن وجعلن يتلفتن الى الخلف بين وقت وآخر .. وعدنا بدورنا الى المسكن .

ذهبنا الى الكانتين وشربنا كثيرا .. وجعل كل منا يسرد للآخرين وقائعه الغرامية ويبالغ فيها ما شاء له الخيـــال .. وانتقلنا من الشراب الى التدخين .. ولما اقترح كروب أن نحمل معنـــا بعض السجائر وضعنا مقدارا منها فى قبعاتنا .

كنا أربعة .. ولابد من ذهاب ثلاثة فقط .. ولذلك أسكرنا جادن حتى أفقدناه رشده .. ولمـا اقبل الليل ذهبنا الى مسكننا مسندين جادن بيننا ، فوضعناه فوق فراشه وراح فى الحال يغط فى النوم .. على أنه استيقظ بعد قليل وأخذ يغمز لنا بعينيه .. فانزعجنا وخيل الينا انه خدعنا ومكر بنا حتى فاز بكل ما قدمنا له من الخمر .. لكنه لم يلبث أن عاد الى غطيطه .

حمل كل منا رغيفا من الخبز ولفه فى صحيفة مع الســجائر وبعض السجق المحشو بالكبد .. فصارت هدية لا بأس بها .

وضعنا هذه الهدايا فى أحذيتنا التى قررنا أن نحملها معنا حتى نصون أقدامنا من الاسلاك وشظايا الزجاج المتناثرة فوق الضفة الاخرى .

ولما كان لابد أن نذهب الى النساء سباحة ، فقد خلعنا ملابسنا وتركناها فى المسكن ، معتمدين على ستار الظلام وقرب المسافة .

وخرجنا حاملين احذيتنا فى أيدينا . وسرعان ما نزلنا الى الماء وأخذنا نسبح على ظهورها حاملين الاحذية بمحتوياتها فوق رءوسنا.

ولما وصلنا الى الضفة الثانية اخرجنا الهدايا ولبسنا الاحذية ثم أخذنا نركض فى الظلام عراة الابدان يقطر الماء منا ، وقد تأبطنا هدايانا ..

وصلنا الى المنزل .. واخذنا نحوم حوله متلصصين .. وفجأة تردد كروب وقال :

ــ ماذا يكون الموقف لو وجدنا هنا أحد الضباط ؟ .

فأجاب لير : نجلو عن هنا ببساطة . ولو استطاع أن يقرأ رقم كتيبتنا ونحن على هذه الحال فانه يكون من أبرع الضباط .

كان باب الفناء مفتوحا .. واحدث وقع أحذيتنا صوتا مسموعا .. وأخيرا فتح باب المنزل وظهر بعض الضوء . وصرخت امراة فى صوت يشف عن الانزعاج .

قلنا جميعا فى صوت واحد :

ـ صه ! . نحن اصدقاء ! .

وفى اللحظة التالية ظهرت المرأتان الباقيتان . وفتح الباب على سعته وتسرب ضوء كاف .. فعرفتنا . وانفجرن ضاحكات من منظرنا واستمر ضحكهن وقتا طويلا وهن يتلوين من فرط الطرب .

استأذنت النساء الثلاث لحظة واختفين فى الداخل والقين الينا بعض الملابس .. فتقبلناها مسرورين وسترنا بها أجسادنا .. وبعد ذلك سمحن لنا بالدخول ..

كان مصباح صغير يضىء الغرفة التى تقدمنا اليها ، وشممنا منها رائحة عطرية .. وسرعان ما فك كل منا هديته وقدمها الى واحدة .. فلمعت أعينهن وتبين لنا بجلاء انهن جائعات .

على أن الارتباك اعترانا جميعا بعد ذلك .. فأشار لير اليهن بالأكل .. وفى لحظة عادت اليهن دلائل النشاط واحضرن أطباقا وسكاكين وأخذن يأكلن بشراهة .. وكن يتناولن قطع السجق وينظرن اليها معجبات قبل اكلها ، ونحن نتطلع الى هذا فخورين مسرورين .

أمطرنا النساء بعد ذلك بوابل من الحديث .. ولم نفهم الا قليلا مما قلن .. لكننا أنصتنا اليهن ، ورنت كلماتهن فى آذاننا رنينا عذبا .. وفى الحق اننا جميعا كنا فى نضارة الشباب .. وعبثت المراة السمراء النحيلة بشعرى وقالت :

ـ الحرب .. مصيبة كبرى .. اطفال مساكين ..

تشبثت بذراعيها وطبعت قبلة فى راحة يدها .. واطبقت اصابعها على وجهى .. وكنت فى هذا الوقت من أسعد المخلوقات .. ولما القيت نظرة على صاحبى الفيتهما لا يقلان عنى سعادة بهذه الجلسة الجميلة التى لم نكن نحلم بها .. ثم تفرقنا فى الغرف المجاورة .

***

التأم جمعنا بعد وقت .. وكان لير اشدنا ابتهاجا .. ثم لبسنا احذيتنا وودعنا النساء وداعا حارا .. واخذنا نسير فى ضوء القمر

الساجى بخطوات واسعة .. وفجأة سمعنا وقع اقدام .. فاختبأنا خلف بعض الاشجار ..

دنا القادم من مكاننا .. ورأينا جنديا عاريا مثلنا لا يلبس سوى حذائه .. وكان يركض حاملا ربطة تحت ابطه .

كان الزميل جادن .. وسرعان ما اختفى عن انظارنا .. ولم نتمالك ان ضحكنا .. ولا ريب أنه سيلعننا حينما يجتمع بنا فى الصباح .

وعدنا أخيرا الى المسكن الذى أوينا اليه ، دون أن يفطن الينا أحـد .

***

دعيت الى مكتب القيادة ... وأعطانى القائد ترخيصا باجازة وتصريحا بالمرور ، وتمنى لى رحلة طيبة .

نظرت الى الترخيص .. فاذا مدة الاجازة اربعة عشر يوما يضاف اليها ثلاثة أيام لمسافة الطريق .

لم أجد هذه المدة كافية .. والتمست منحى خمسة أيام للسفر . لكن برتنك أشار الى الاذن . فلما نظرت اليه من جديد رأيت انى لن أعود الى الميدان على اثر انتهاء الاجازة ، بل سأذهب الى معسكرات التدريب حيث أقضى مدة أخرى .

حسدنى الزملاء .. على انى وددت لو تأخرت الاجازة اسبوعا ، فقد كان مقررا أن نبقى هنا مثل هذه الفترة .

كان على بالطبع ان احتفل بهذه المناسبة .. فدعوت اصدقائى للشرب فى الكانتين . وشربنا حتى كدنا نثمل ، واحسست بشىء من الكآبة . فانى سأتغيب نحو ستة أسابيع . ومن يدرى ما يحدث فى خلال هذه المدة حتى عودتى ؟ . هل يقدر لى أن التقى بهؤلاء الزملاء من جديد ؟ . ان كمريخ وهاى ديستوس ذهبا . فمن يلحق بهما بعد ؟ .

وفى صباح اليوم التالى ذهبت الى المحطة ورافقنى البرت كروب وكات . ولمـا وصلنا اليها علمنا أن القطار لن يتحرك قبل ساعتين .. فودعنى الزميلان وعادا للقيام بالواجبات العسكرية المفروضة عليهما .

حان موعد قيام القطار اخيرا . وانساب بنا بين الحقول النضرة والمروج المنبسطة . ومر بمحطات متعددة لم تثر فى النفس اهتماما

ولا شعورا غير عادى . حتى اذا دنا اخيرا من بلدتى ــ مهد شبابى ومقر أحلامى وآمالى ــ جاشت فى النفس ذكــريات المــاضى .. ووقفت بجانب النافذة أطل منها وأنا أحس بغصة فى حلقى . بينما راح الباقون يجهزون حقائبهم وامتعتهم استعدادا للنزول .

وقف القطار أخيرا .. وتعالى فى أرجاء المحطة الصياح والجليل. فحملت عدتى فوق ظهرى وربطت اطرافها .. وتناولت بندقيتى وانحدرت من القطار متعثرا .

وقفت على افريز المحطة لحظة أجيل النظر حولى . فلم اعرف أحدا من كل من رايتهم يتراكضون ويسرعون هنا وهناك .. ولمــا قدمت الى احدى فتيات الصليب الاحمر شيئا من الشراب الذى كانت توزعه على الجنود انصرفت عنها ولم اقبل منها شيئا .

تدفق سيل الناس الى خارج المحطة .. واندفعت فى غمارهم أجتاز القنطرة العتيقة القائمة على النهر .. هذه القنطرة التى طالما جلسنا فوقها نستنشق النسيم العليل ونتبادل القصص الممتعة عن أحوال المدرسة والمدرسين .

مررت بكثير من المعالم والحوانيت التى اعرفها جيدا ، ولم تبرح صورها ذاكرتى رغم تعاقب الاهوال وتلاحق الخطــوب .. ولمــا وقفت أخيرا أمام بيتى شعرت بثقل فى يدى ، ولم اكد اقوى على تحريك المزلاج .

فتحت الباب .. فصافحنى جو رطيب يملأ النفس لوعة وحنينا .. وغشيت عينى سحابة .

اخذت درجات السلم الخشبى تصر تحت قدمى الثقيلتين .. وفتح باب المطبخ وهبت منه رائحة كعك البطاطس الذى يجهزونه يوم السبت .. واطل شــــخص من فوق حاجز الســـلم ليرى من القادم .. فاذا هى أختى .

استولى على الخجل لحظة واطرقت براسى .. ثم خلعت خوذتى وتطلعت اليها .

كانت شقيقتى الكبرى .. وما كادت تعرفنى حتى هتفت :

ــ بول ! .. بول ! .

ــ أومأت براسى .. وأحسست بأنى أكاد انوء بنقل عـــدتى وبندقيتى .

وفتحت أختى بابا وهتفت : امى .. امى .. جاء بول ! ..

استندت الى الجدار وتشبثت بخوذتي وبندقيتي .. وعجزت عن التقدم خطوة أخرى .. وتلاشى السلم من امامى . واتكأت على البندقية التى ثبت قاعدتهـــا بين قدمي ، وضغطت على أسنانى بعنف . ولم أقو على التفوه بكلمة واحدة . فان نداء أختى سلبنى كل قوة ، وأفقدنى كل ارادة .

حاولت أن أضحك .. أو أتكلم .. لكن لم تخرج كلمة واحدة من فمى .. وهكذا وقفت فوق السلم صورة مجسمة للتعاسة والعجز والشلل .. وأخذت الدموع تنهمر من عينى رغم ارادتى .

عادت أختى وقالت : ما هذا ؟ ماذا جرى ؟ .

على انى تغلبت على انفعالى وارتقيت الدرجات الباقية متمايلا مترنحا وأسندت بندقيتي فى احـــد الاركان .. ووضعت عدتى بجانب الجدار وفوقها خوذتى .. ثم قلت بخشونة :

ــ أريد منديلا .

جاءتنى بمنديل جففت به وجهى .. ورايت فوق راسى الصندوق الزجاجى محتويا على الفراشـــات الملونة التى جمعتها فى ماضى ايامى .

سمعت صوت أمى صادرا من غرفة النوم . فسألت اختى :

ــ هل هى فى الفراش ؟ .

فأجابت : انها مريضة .

دخلت الى غرفة النــوم . ومددت يدى الى أمى وقلت بــكل ما استطعت من هدوء :

ــ هأنذا يا أماه ..

تمددت ساكنة فوق الفراش فى الضوء الضئيل . ثم سألتنى بقلق :

ــ هل جرحت ؟ .

ــ لا . انا فى اجازة .

كانت شديدة الشـــحوب . وخفت أن اطلب ضوءا . وقالت اخيرا :

ــ انى الآن راقدة . وأنا أبكى بدل الفرح .
سألتها : هل انت منحرفة الصحة يا أماه ؟ .

فأجابت : سأنهض اليوم قليلا .

ثم التفتت الى شقيقتى التى كانت تتردد بين لحظة واخرى على

المطبخ حتى لا يحترق الطعام ، وقالت لها :
— جهزى الكراز المجفف . ألا تحبه يابول ؟ .
— نعم يا أماه . انى لم أذق طعمه منذ زمن طويل .
فقالت شقيقتى ضاحكة :
— كأن هاتفا حدثنا بمجيئك . فعندنا اليوم كعك البطاطس وهو اللون الذى تحبه كثيرا . وستأكل معه الكراز ايضا .
فقلت : ونحن كذلك فى يوم السبت .
قالت امى : اجلس هنا بجانبى .
جعلت تنظر الى . كانت يداها بيضاوين انحلهما المرض . ولم نتكلم الا قليلا . وحمدت الله انها لم توجه الى أسئلة . ولو فعلت لعجزت عن الجواب .
ان كل ما تمنيته قد تحقق . فقد خرجت من الحرب سالما .. وهأنذا أجلس قرب أمى .. وكانت أختى تجهز طعام العشاء فى المطبخ وهى تغنى .
قالت أمى برقة :
— ولدى العزيز ..
لم نكن نتبادل العواطف فى هذا البيت . فان الفقراء أمثالنا ممن يكدون وينهمكون فى مشاغل الحياة لا يتبادلون العواطف .. وليس من شأنهم أن يقرروا الا ما هو موجود فعلا .. فاذا قالت لى الآن أمى هذه الجملة فان لها من قوة المعنى وعمق التأثير ما لايقوى غيرها على ابرازه وتصويره . وكنت أعلم علم اليقين ان الكراز المجفف الذى أشارت اليه لم يدخل الى البيت منذ أشهر طويلة ، وانها قد احتفظت به خصيصا لأجلى ، وانها ابتاعته رخيصا من قبل ولم تشأ أن تفرط فيه حتى تقدمه الى .
جلست قرب الفراش .. ورأيت من النافذة اشجار الكستناء فى حديقة المشرب المواجه للمنزل تتوهج بألوان ذهبية داكنة .. فاستنشقت الهواء عميقا وناجيت نفسى : « انت فى بيتك .. انت فى بيتك » .
لكنى أحسست بشعور غريب لا يفارقنى .. ولم أشعر بأنى فى بيتى حقا بين هذه المشاهد .
هذه أمى .. وهذه شقيقتى .. وهذه علبة الفراش الملون .. وهذا هو البيانو الذى كنت اعزف عليه .. لكنى لا أحس بالفة

ولا امتزاج فى هذا المحيط .. لست كما كنت من قبل .. وهناك فاصل وحجاب كثيف بينى وبين هذه المعالم .

ذهبت وأحضرت عدتى قرب الفراش ، وأخرجت الاشياء التى حملتها معى .. وهى قرص من الجبن الدسم قدمه الى كات ، ورغيفان من خبز الجيش ، ورطل من الزبد ، وعلبتان من السجق المحشو بالكبد ، وكيس صغير من الأرز .

***

قلت : يمكن أن تنتفعوا بهذا .

فأومأت أمى وأختى ايجابا ، فقلت :

— هل تجدون مشقة فى الحصول على طعام كاف هناك ؟

ابتسمت ، وأشرت الى الاشياء التى أحضرتها وقلت :

— لا نحصل دائما على مثل هذه الكميات بالطبع .. لكننا نأكل مافيه الكفاية .

حملت شقيقتى (ارنا) الطعام .. وفجأة أمسكت أمى بذراعى ، وقالت فى صوت متهدج :

— هل كانت الاحوال سيئة هناك يا بول ؟ .

أواه يا أمى ! . كيف يمكن أن أجيب على سؤالك ؟ .. فليس فى وسعك أن تفهمى .. بل يستحيل أن تتصورى وتقدرى ! .

هززت رأسى وأجبت :

— لا يا أمى .. ليست سيئة كثيرا .. نحن دائما نجتمع معا . وهذا ما كان يخفف عنا .

— نعم .. لكن هنريخ بردمير جاء هنا أخيرا وقرر ان الاحوال هناك فظيعة بسبب الغازات وما اليها .

ما كانت أمى تفقه ما تقول . وكانت قلقة بشأنى فقط . فهل أذكر لهـا اننا وجدنا مرة أحد خنادق الاعـداء مملوءا بالرجال بين واقف وممدد وقد شابت وجوههم زرقة داكنة ، وأطبق عليهم الموت ؟ .

قلت لها : لا يا أمى .. هذا مجرد كلام . ليس فيما قال بردمير كثير من الصدق .. فأنت ترين مثلا انى سليم معافى .

احتفظت بهدوئى أمام قلق والدتى .. ولما أعربت عن رغبتها فى ترك الفراش ذهبت الى أختى فى المطبخ وسألتها عن مرضها . فقالت وهى تهز كتفيها :

ـ انها لازمت الفراش منذ بضعة اشهر .. لكننا لم نحب ان نكتب لك بذلك .. وقد زارها كثير من الاطباء .. وقرر أحدهم انها قد تكون مريضة بالسرطان .

***

قصدت الى قائد الحامية ، لتقديم نفسي .. وسرت فى الشوارع بخطوات متثاقلة . وكان بعض الناس يكلموننى أحيانا . فكنت أجيب فألتفت حولي وأنا غارق فى أفكارى . ورأيتنى وجها لوجه أمام أحد الضباط الذى ابتدرنى قائلا :

ــ ألا يمكنك ان تؤدى التحية ؟ .

أجبت مرتبكا : آسف يا سيدى . لم أنتبه اليك .

فقال صاحبنا : ألا تعرف كيف تتكلم بلهجة أكثر لياقة ؟ .

وددت لو لطمته على وجهه .. لكنى ضبطت عواطفى لأن أجازتى معلقة على هذا العمل . وضممت قدمى قائلا :

ــ انى لم أرك يا سيدى الضابط .

فقال فى غلظة : اذن افتح عينيك جيدا .. ما اسمك ؟ .

ذكرت له اسمى .. فقال غاضبا :

ــ ما هى وحدتك ؟ .

قررت له البيانات اللازمة ، لكنه لم يقنع ، وسألنى :

ــ أين تعسكرون ؟ .

كان هذا أكثر مما أطيق احتماله .. فأجبته :

ــ بين لانجمارك وبكشوت .

فبدا على وجهه شيء من الذهول وقال :

ــ صحيح ؟ .

قلت له أننى جئت فى أجازة منذ نحو ساعتين ، واحسست انه سيكتفى بهذا ويخلى سبيلى ، لكنه تمادى فى غطرسته وقال :

ــ هل تظن أن من السهل أن تظهر هنا أخلاق الميدان ؟ .. نحن لا نحتمل مثل هذه الوقاحة ؟ . النظام مكفول هنا والحمد لله .

ثم أمرنى أن أتراجع الى الخلف وأن أؤدى له التحية العسكرية . فاستولى على غضب جنونى .. لكنى لم أستطع أن أقول له شيئا . فقد كان بوسعه أن يأمر بحبسى اذا شاء .. ولذلك أذعنت للأمر ، فسرت الى الخلف ، ثم عدت فى خطوات عسكرية الى ناحيته .. ولما صرت على بعد ست خطـــوات منه وثبت وتصلبت واديت له

التحية ، وبقيت رافعا يدى حتى ابتعدت عنه ست خطوات أخرى .

أمرنى بالعودة .. وتنازل بافهامى انه رضى هذه المرة أن يضع الرحمة فى موضع العدالة .. فتظاهرت بالشكر والامتنـــان ، ولمـا أمرنى بالانصراف سرت فى خطوات رشيقة وابتعدت عنه .

عكر على هذا الحادث صفوى وأفسد ليلتى .. ولمـا عدت الى البيت خلعت سترتى العسكرية وألقيتها فى أحد الاركان .. على انى كنت أنوى من قبل أن أتخلص منها .. ثم أخرجت ملابسى المدنية وارتديتها .

كنت مضحكا فى هذه الملابس .. فقد ضاقت السترة وقصرت ، اذ نما جسمى فى الجيش .. ووجدت عناء فى ارتداء الياقة وربطة العنق .. وأحسست بأن الملابس خفيفة حتى ليخيل الى انى لا أحمل سوى القميص والسروال ..

سرت أمى حينما رأتنى مرتديا ملابسى المدنية ، فهى تجعلنى أقرب اليها وأقل غربة فى نظرها ، لكن أبى آثر أن أستبقى سترتى العسكرية حتى يصحبنى لزيارة معارفه بها .. بيد انى رفضت .

***

جلست فى حديقة المشرب أحتسى كأسا من الجعة فى هدوء .. فقد تعلمت الشرب فى الجيش .. ولم يعد يدوى فى سمعى صوت الأبواق وانفجار القنابل .. وكان الاطفال يلعبون وادعين فى الحديقة. واشرقت الشمس فى صفحة السماء الزرقاء .

وجدت راحة فى هذه المشاهد .. لكن الناس كانوا يضايقوننى بأسئلتهم .

كانت أمى وحدها راغبة عن القاء الأسئلة .. أما أبى فـكان بعكسها فهو يريد دائما أن أحدثه عن الميدان .. ورأيت فى فضوله تنطعا أحزننى .. ولم أعد أتصل به كما كنت أفعل من قبل .

لم يكن يعرف ان الانسان لا يمكن أن يتحدث عن هذه المسائل . وكنت أود أن أجيبه الى ما يريد عن طيب خاطر ، اولا انه كان من أشد الخطر ان أصوغ هذه المســائل فى الجمل والـكلمات .. فقد كنت أخشى أن تتجسم فى خيالى ولا أقوى على ضبط عواطفى .. والحق ماذا يكون من أمرنا لو ان كل ما يحدث فى الميدان يبقى عالقا بجلاء فى أذهاننا ؟ .

ولذلك اكتفيت بسرد بعض الوقائع أمامه .. لكنه راح يسألنى ان



كنت قد اشتبكت فى قتال مع أحد الاعداء وجها لوجه ، فأجبت سلبا .. وابتعدت عنه .

لكن هذا لم يكن كل شيء .. فبينما كنت أسير فى الشارع أحسست بيد توضع على كتفى .. فالتفت حولى واذا أنا أمام أستاذ اللغة الألمانية فى مدرستنا .. ووجه الى على الفور هذا السؤال :

ــ كيف الحال هناك ؟ .. فظيعة بلا شك .. أليس كذلك ؟ .. نعم .. هى مخيفة .. لكن لابد من الصبر والثبات .. ومهما يكن من شيء فانكم تحصلون على الطعام الجيد هناك كما سمعت . أنت تبدو فى صحة جيدة يا بول .. وطبيعى أن تكون الحال سيئة هنا .. فاننا نؤثر جنودنا بأحسن ما عندنا بلا ريب .

ثم أخذنى الى حيث تجلس طائفة من أصحابه .. فرحبوا بى ، وصافحنى ناظر احدى المدارس قائلا :

ــ اذن فقد جئت من الميدان ؟ .. حال الروح المعنوية هناك ؟ .. طيبة .. أليس كذلك ؟ .

قررت له انه لا يوجد من يأسف على العودة الى بلدته وأهله . لكنه ضحك عاليا وقال :

ــ انى أقدر هذا الكلام .. لكن عليكم أن تؤدبوا الاعداء قبل ذلك .. هل تدخن ؟ .. جرب هذه السيجارة .. (جرسون) . أحضر كأسا لجندينا الهمام .

قبلت السيجارة لسوء الحظ واضطررت للبقاء ، وكانوا جميعا يقطرون رقة ومجاملة حتى استحال على أن أمانع ، على انى كنت أشعر باستياء وجعلت أدخن كالقاطرة .. ولما شربت الكأس التى قدمت الى ، جيء الى بثانية ، فهم يعلمون انهم مدينون للجنود بشيء كثير .. وراحوا يتحاورون فيما يجب أن نفعل .. فلم يقنع ناظر المدرسة بأقل من أخذ بلجيكا كلها ومناطق الفحم فى فرنسا مضافا اليها ما تيسر من روسيا .. وراح يسرد الحجج التى توجب الاستيلاء على كل هذه المغانم . ولم يتزحزح قيد شعرة عن مطالبه وآرائه حتى اذعن له الآخرون .. وأشار الى المواطن الفرنسية التى يجب أن نخترقها لتحقيق أغراضه .. والتفت الى قائلا :

ــ عليكم باكتساح هذه المناطق مستعينين بحرب الخنادق .. حطموا الاعداء واخترقوا صفوفهم .. وبعد ذلك تضمنوا السلم .

قلت له ان اختراق صفوف الأعداء قد لا يكون ميسورا .. فان لهم خطوطا متعددة متتالية .. وفوق هذا فان الحرب تختلف عما يحسبه الناس ويتخيلونه .

لكن الناظر الفاضل نفى هذا الرأى بأنفة وقرر لى انى لا أفهم شيئا فى مسائل الحروب.. واستطرد قائلا :

ــ نعم انك تفهم فى التفصيلات .. لكن كلامى ينصب على الحرب جملة .. وليس فى وسعك أن تقدر هذه المسائل تقديرا صحيحا .. انك ترى خندقك الصغير فقط ، ولا يمكنك أن تلقى نظرة شاملة .. أنتم تقومون بواجباتكم .. أنتم تضحون بأرواحكم وهذا ما يؤهلكم لأسمى آيات الشرف والفخار . ومن الواجب أن يكافأ كل جندى منكم بوسام « الصليب الحديدى » . لكن يجب قبل كل شىء اختراق خطوط العدو فى « فلاندرز » وتطويقه من الشمال .. وبعد ذلك الى باريس .

كم أود أن أعرف كيف يتصور .. مثله هذا الخيال . لكنى لم أطق صبرا وأسرعت بالانصراف .. على أنه دس فى جيبى بعض السجائر .. وقال وهو يربت على كتفى :

ــ على كل حال نرجو أن نسمع انك قمت بأعمال مجيدة ترفع شأنك .

***

كنت أتصور الاجازة على غير هذه الصورة .. والواقع انها اختلفت عن هذا فى العام الماضى .. لكننى تغيرت فى هذه المدة .. وانشقت هوة بين ذلك العهد وبين اليوم . ففى ذلك الحين لم أكن أعرف شيئا عن الحرب ، اذ كنا فى خنادق هادئة لا تصلاها نيران الاعداء الحامية .. لكننى رأيت الآن انى قد تحطمت وسحقت دون أن أفطن لذلك .. وانى لم أعد أنتمى الى هذا المحيط كما كنت .. بل استحلت كائنا غريبا عن العالم .. فمن الناس من يلقى أسئلة .. ومنهم من لا يسألون . لكن من السهل أن يفهم الانسان أن هؤلاء مغرورون مزهوون بأنفسهم يحسبون انهم مطلعون على حقائق الأمور .

اصبحت افضل الوحدة .. فالناس جميعا يطرقون موضوعا واحدا لا يتغير .. هو الاستفسار عن الاحوال فى الميدان .. وهم يسرفون

فى بسط آرائهم وتكييف وجهات نظرهم بما يثير فى نفسى الضيق والاشمئزاز .

وكنت كلما رأيتهم هنــــا فى بيوتهم ومكاتبهم ومشـــاغلهم أحس بحافز غلاب يجذبنى الى ناحيتهم ، فأتوق الى البقاء معهم ونسيان الحرب مثلهم .. لكنى لا ألبث أن أشعر بالنفور .. وتضيق هــذه المعالم فى نظرى .. ولا أرى كيف يمكن أن تمتلىء حياة الانسان بهذه الأشياء وكيف يصبر عليها ، وهناك فى الميدان تصفر الشظايا فوق الحفر .. ويحمل الجرحى فوق النقالات .. ويجثم الرجال فى زوايا الخنادق .

هؤلاء رجال مختلفون هنا .. هم رجال لا أقوى على فهمهم .. هم رجال أحسدهم وأحتقرهم .. وخير لى أن أفكر فى كات وألبرت كروب وموللر وجادن .. ترى ماذا يفعلون ؟ .. لا ريب انهم جالسون فى الكانتين ، أو أنهم يستحمون فى القناة .. فعن قريب سيذهبون الى ميدان القتال من جديد .

***

جلست فى غرفتى الخاصة بمنزلى فى مقعد جلدى ذى ذراعين .

كانت حولى صور كثيرة قصصتها من الصحف والمجلات وألصقتها فوق الجدران .. وفى الناحية المقابلة رفوف الكتب تتضمن الكتب المدرسية الى جانب المجلدات الادبية القديمة التى اشتريت بعضها بمالى الخاص ، وبعضها استعرته ولم أرده الى أصحابه لفرط اعجابى بما فيها ولهفتى الى الاحتفاظ بها .

أردت أن أستعيد ذكرى ذلك العهد وان أحس بأن محيط الشباب الماضى لا يزال يشملنى كما كان الحال من قبل ، ويبسط ظله على .

لم يتغير محيط الغرفة المادى . غير انى كنت أتوق الى الشعور بذلك الحافز القوى الذى كان يدفعنى ويجيش فى نفسى كلما عدت الى كتبى ، ويضرم فى نفسى شعلة التطلع الى المستقبل والرغبة فى استباق الحوادث وتعجل مافى الغد .

جلست وانتظرت .

أردت أن تنطق الغرفة ، وان أشعر بأنى منها ، وأن تترك فى نفسى من أدلة اليقين ما يجعلنى اثق بأن ذكريات الحرب لا تلبث أن تتوارى من مخيلتى بعد انتهائها ، ولا يبقى فى ذهنى سوى صور الحيـــاة البيتية مجسمة ناطقة .

جعلت أتطلع الى الكتب وأتوسل اليها بعينى أن تتكلم ، وأن تضمنى اليها .. انتظرت طويلا .. وجعلت الصور والذكريات تتسابق فى ذهنى . لكنها كانت أشباحا عارضة لا تلبث أن تختفى .

ولم يهبط على الاحساس الذى كنت أنتظره .

ساورنى القلق .. وأحسست بأنى غريب عن هذا المكان .. ولم أستطع أن أستعيد طريقى اليه . وألفيتنى مقصبا عنه ، وان رحت أبذل ما أملك من جهد للاندماج فيه والعودة اليه .

جلست مكانى جامدا ، وانطوت صحائف الماضى أمام نظرى .. ولما ضاق صدرى نهضت وتناولت كتابا بقصد المطالعة فيه ، ورحت أقلب صحائفه .. لكنى لم ألبث أن ألقيته وتناولت غيره .. وجعلت أقلب الكتب والصحف والمجلات واحدا بعد الآخر دون أن أستقر عند واحد أو يستهوينى منها شىء .

ووقفت فى مكانى صامتا منقبض النفس .

لم تتضمن بطون الكتب والمجلات سوى مجرد كلمات أمام نظرى ، ولم تصل الى أعماق نفسى أو تنفذ الى وجدانى .

وأخيرا أعدتها الى مكانها يائسا قانطا .. ثم غادرت الغرفة الى غير رجعة .

***

على انى مع ذلك لم أقطع الأمل .. وعللت نفسى بأن قضاء بضعة أيام فى جو غرفتى غير كاف لاصدار حكم فاصل ، وانه سيتوفر لى فى المستقبل مزيد من الوقت أتفرغ فيه لهذه المسألة .

ولذلك ذهبت لزيارة زميلى السابق متلستاد فى الثكنات وجلست معه فى غرفته .. وما كاد يستقر بى المقام حتى أطلعنى على نبأ سرى كالكهرباء فى عروقى .. فقد أبلغنى أن كانتوريك ناظر مدرستنا السابق قد جند فى صفوف الرديف لتلبية الطوارىء المحلية .

وقال متلستاد وهو يقدم لى سيجارة :

ـ ما كدت أصل الى هنا من المستشفى حتى قابلته وجها لوجه .. وسرعان ما بسط الى يده ذات المخالب وقال : « هذا انت يا متلستاد ؟ كيف حالك » . على انى نظرت اليه وقلت له : « أيها النفر كانتوريك ، الجد جد .. والهزل هزل .. ولعلك تعرف هذا تماما .. قف منصب القامة باحترام حينما تخاطب ضابطا » .

كم أود لو انك رأيت وجهه حينما سمع هذه الكلمات . وحاول أن يتودد الى .. غير انى عنفته بلهجة أشد . ونفض آخر سهم فى كنانته فقال لى :

« هل تحب أن أستخدم نفوذى فى عقد امتحان ملحق لك ؟ » غير انى اهتجت حينما رأيته على تشبثه السابق بهذه السفاسف التى تعرفها .. فقلت له : « أيها النفر كانتوريك .. منـذ عامين خطبت فينا تحثنا على التطـوع .. وكان بيننــــا زميل لم يرغب فى التجنيد . هو جوزيف بيهم .. وقد قتل قبل أن يجىء دوره فى التجنيد بمدة ثلاثة أشهر .. ولولاك لعـــاش مثل هذه المدة على الأقل .. والآن .. انصرف . وستسمع منى فيما بعد » .

وكان من اليسير بعد ذلك ان أرأس كتيبة . وأول ما فعلته هو انى ذهبت به الى المخازن وزودته بمهمات مناسبة ، ستراها بعد دقيقة .

وذهبت مع متلستاد على اثر هذا الحديث الى ميدان التدريب .. فاصطفت الكتيبة وراح متلستاد يفتشها .

لم أكد أرى كانتوريك حتى بدرت منى ضـــحكة لم أقـو على كتمانها . فقد كان يرتدى سترة فضفاضة زرقاء حال لونها وتلطخت أكمامها وظهرها ببقع سوداء كبيرة .. وكان (التزلك) الاسود البالى لا يكاد يغطى ساقيه ، والحذاء ذو المقدم المقوس أضخم من أن تحتمله قدماه . ولكى يكون التناسق تاما فى هذا الهندام المضحك وضعت على رأسه قلنسوة قذرة شديدة الضيق لا تـكاد تستقر فى وسط رأسه . وكان منظره بالاجمال يدعو الى الرثاء .

وقف متلستاد أمام كانتوريك وقال له :

ــ يا نفر كانتوريك .. هل هذه أزرار لامعة ؟ . يظهر انك لن تتعلم ابدا . أنت مقصر ياكانتوريك . أنت شديد التقصير .

كدت أطير من الابتهاج . فقد اعتاد كانتوريك فى أيام المدرسة أن يؤنب متلستاد بنفس هذه الكلمات قائلا له : انت مقصر يا متلستاد. انت شديد التقصير .

واستمر متلستاد فى توبيخ كانتوريك .. فقال :

ــ أنظر الى بوتشر . هذا مثل يجدر بك أن تقتدى به .

لم أكد أصدق عينى . فقد كان بوتشر فى الكتيبة أيضا ! . بوتشر بواب المدرسة ! . واصبح مثلا يقتدى به كانتوريك ! .

صوب كانتوريك الى نظرة قاسية حتى ليكاد يلتهمنى . لكنى نظرت اليه فى سذاجة وكأنى لا أعرفه .

لم يكن هناك ماهو أبعث على الضحك من هذا الزى العجيب .. ومن عجب أن هذا المخلوق هو الذى اعتدنا أن نقف أمامه مكروبين محرجين وهو جالس الى مكتبه كأنه متربع فـوق عرش ، حيث كان يصوب الينا قلمه كالحربة ويعنفنا للأخطاء التى كانت تصدر منا فى تصريف الافعال الفرنسية التى تقدمنا فيها فيما بعد تقدما محسوسا فى ميادين فرنسا .

كان هذا منذ سنتين . والآن ها هو ذا النفر كانتوريك يقف خانعا وقد انكسرت شوكته ودالت سطوته والتوت ساقاه فى هذا الهندام الذى يثير السخرية والابتسام . فسبحان مغير الاحوال .

أمر متلستاد الكتيبة باجراء بعض التدريبات . وعين كانتوريك قائدا لها من باب التعطف . وفى هذا التدريب يسير القائد على بعد عشرين خطوة أمام الكتيبة . فاذا صدر الأمر بالالتفاف دارت الكتيبة خلفا .. لكن قائدها يجد نفسه فجأة على بعد عشرين خطوة خلفها .. فيندفع الى الامام لادراكها فى خطوات مضاعفة ويستعيد مكانه ثانية على بعد عشرين خطوة امامها . يعنى انه يضطر لقطع اربعين خطوة فى سرعة مضاعفة .. لكن ما يكاد يصل الى مكانه حتى يصدر الامر بالالتفاف ثانية .. فيضطر القائد مرة ثانية للركض أربعين خطـوة أخرى حتى يعود على رأس الكتيبة . وبهذه الطريقة لا تقطع الكتيبة أكثر من بضع خطوات وتدور خلفا فى حين ان القائد يندفع الى الأمام والى الخلف فى حالة مضحكة .. وكم كان هملستوس بارعا فى افتنان مثل هذه التدريبات .

وما كان لكانتوريك يطمع من متلستاد فى غير هذا .. فانه اضاع مرة على متلستاد فرصة الانتقال الى سنة أخرى فى المدرسة .. ولو أن متلستاد لم ينتهز هذه الفرصة للثأر .. من كانتوريك قبل أن يعود الى ميدان القتال لكان مغفلا يشار اليه بالبنان ! . وان الانسان ليموت قرير العين بعد أن يروى غليله من غريمه السابق مفتنما هذه المناسبة التى يهيئها له الجيش ! .

فى هذه الاثناء كان كانتوريك يندفع أماما وخلفا كخنزير وحشى .. وبعد مدة أوقف متلستاد هذا التدريب .. وابتدأت تدريبات الزحف وهى أكثر أهمية .

اخذ كانتوريك يزحف على يديه وركبتيه حاملا بندقيته فوق الرمال .. وكان يتنفس بصعوبة ويلهث فى صوت موسيقى ..

وراح متلستاد يحث « النفر » كانتوريك مقتبسا نفس العبارات التى كان كانتوريك يتشدق بها فى المدرسة .. فقال له :

ـ يا نفر كانتوريك .. من حسن الحظ اننا نعيش فى عهد مجيد .. يجب أن نتجلد ونقهر الشدائد .

تصبب العرق فوق وجه كانتوريك .. وبصق خشبة قذرة اندست بين أسنانه أثناء الزحف .. فانحنى متلستاد فوقه وقال له مؤنبا :

ـ ويجب أن نصبر على ما يعرض لنا من المصاعب والعقبات ! .

وبعد انتهاء هذه التدريبات صدر الامر الى كانتوريك وبوتشر بجر العربة اليدوية والذهاب الى المخبز لاحضار الخبز اللازم للثكنات .. وما هى الا بضع دقائق حتى راح الاثنان يدفعان العربة وقد اطرق كانتوريك برأسه سخطا وانفعالا .

كان المخبز فى نهاية البلدة .. وهكذا تعين على الاثنين أن يقطعا طولها ذهابا وايابا .. وقال متلستاد باسما :

ـ انهما قاما بهذه المهمة مرتين حتى الآن .. واخذ الجمهور يترقب عودتهما ! .

فقلت له : احسنت .. لكن ألم يتقدم كانتوريك بالشكوى ضدك ؟ .

بل حاول هذا فعلا .. لكن قائدنا ضحك عاليا حينما سمع بهذه القصة .. وهو لا يريد أن يضيع وقته فى الاصغاء الى نظار المدارس . وفوق هذا فانى على صلات ودية مع ابنته .

ـ ان كانتوريك قد يعمد الى الغاء امتحاناتك ..

فقال متلستاد بهدوء : لا يهمنى .. وفوق هذا فان شكواه لم تقم على أساس .. فقد برهنت على انه كان يعهد اليه بواجبات خفيفة .

***

ان الأجازة فترة انقطاع تفسد كل شىء بعدها .

سرعان ما دب الى نفوسنا الشعور بقرب الفراق .. واخذت أمى تراقبنى فى صمت .. وكنت اعلم انها تحصى الايام الباقية .. ولا يشارفها النهار حتى تساورها الكآبة .. فالايام تتناقص وتكر

واحدا بعد الآخر . وعمدت أخيرا الى ابعاد عدتى فى مكان قصى .. فهى لا تحب أن يذكرها مرآها بالايام الباقية .

وما أسرع ما تمر الســـاعات اذا استسلم الانســـان للتفكير والاكتئاب . ولذلك تغلبت على شعورى وذهبت مع أختى الى المدبح الحكومى للحصول على رطل أو رطلين مع العظام .. وكان الحصول على العظام يعد فوزا عظيما .. وكان الناس يصطفون منذ الصباح الباكر امام المدبح وينتظرون .. وكثيرون كان يغمى عليهم من طول الوقوف والانتظار .

على اننا لم نوفق .. فبعد انتظار دورنا مع آخرين ثلاث ساعات كاملة نفدت العظام ..وتفرقت الصفوف .

ومن حسن الحظ أننى كنت احصل على مؤونتى اليومية من الجيش .. فكنت أحملها الى أمى . وهكذا تسنى لنا الحصول على طعام سائغ .

ومرت الأيام تباعا .. وزاد توتر النفوس .. واشتدت كآبة امى .. ولم يبق سوى أربعة أيام من الاجازة . وقررت اخيرا ان ازور أم كمريخ .

***

لست اقوى على تسطير هذا الموقف .

انى عاجز عن تصوير مصاب هـــذا الأم المنتحبة المرتعـــدة وهى تهزنى وتقول فى صوت يمزق القلوب « لماذا تعيش اذن .. ما دام ابنى مات ؟ » .

ان يدى تهتز حينما أدون قولها لى : « هل رأيته ؟ . . كيف مات ؟ » .

قلت لها انه اصيب فى قلبه برصاصة ومات فورا .. فتفرست فى وجهى ارتيابا وقالت :

ــ انك تكذب .. انى أعرف خيرا منك . انى أحسست بقلبى ما عاناه من هول الموت . انى سمعت صـــوته فى صميم الليل . وشعرت بألمه وعذابه وتوجعه . قل الحقيقة .. أريد ان أعرف . لابد أن أعرف .

قلت لها : لا .. انى كنت بجانبه .. وقد مات فى الحال .

اخذت تستعطفنى فى رقة قائلة :

ــ اخبرنى . لابد ان تخبرنى . اعرف انك تريد ان تواسينى

وتخفف عني . لكن الا ترى انك بهذا التحريف تعذبني اكثر مما لو قلت الحقيقة ؟ . انى لا أحتمل التمويه .. اخبرني كيف مات . وحتى لو كان ما تقصه على هائلا فظيعا فانه يكون أخف وقعا فى نفسى مما لو تركتنى أستسلم للتصورات .

أقسمت الا أبوح لها بالحقيقة ولو مزقتنى اربا . وقلت لها :

ـ انه مات فى الحال .. ولم يحس بأقل الم .. وكانت تبدو على وجهه دلائل الهدوء التام .

صمتت قليلا .. ثم قالت فى تؤدة :

ـ هل تقسم ؟ .

ـ نعم .

ـ هل تقسم بما هو مقدس عندك ؟

هل بقى ما هو مقدس عندى ؟ . ان هذه المسائل تتضاءل بسرعة فى نظرنا نحن الجنود .. ولم اتردد فى الجواب .

ـ نعم .. انه مات فى الحال .

ـ وهل تحب ألا تعود حيا الى أهلك اذا كنت لا تقرر الحقيقة ؟ .

ـ لا أعود حيا اذا لم يكن مات فى الحال .

كنت على استعداد لأن أقسم لها بكل ما تريد .. لكن يظهر انهـا صدقتنى .. فأخذت تبكى وتتوجع بلا انقطاع .. ولما سألتنى كيف أصيب ولدها اختلقت لها قصة لا أساس لها .

ولما ودعتها مستأذنا قبلتنى واعطتنى صورة كمريخ .. فـاذا هو واقف فى ملابس المتطوعين متكئا على طاولة قروية مستديرة فوقها قدح من الجعة ، وخلفه غابة مرسومة فوق ستار .

***

كانت الليلة الاخيرة فى البيت .. واستسلمنا جميعا للصمت .

ذهبت الى فراشى مبكرا .. وتناولت الوسـادة ودفنت فيهـا رأسى .. من يدرى اذا كان يقدر لى أن أرقد فى فراش من القطن بعد الآن ؟

وجاءت أمى الى غرفتى فى الهزيع الاخير من الليل .

حسبتنى نائما .. وتظاهرت فعلا بالنوم .

ان اعصابى لا تحتمل أن أكلمها ، أو أبقى مستيقظا معها .

جلست طويلا رغم مرضها وآلامهـا .. فلم أطق آخر الامر صبرا .

تظاهرت بأنى استيقظت توا .. وقلت لها :
ـ اذهبى ونامى يا أمى .. والا أصابك برد ..
فقالت : سأنام كفايتى فيما بعد ..
جلست فى فراشى وقلت لها :
ـ لن أذهب رأسا الى الميدان يا أمى .. بل سأمضى شهرا فى معسكر التدريب .. وربمـــا تمكنت من الحضور اليكم فى يوم الأحد .
لزمت الصمت .. ثم سألتنى برقة :
ـ هل تخاف كثيرا ؟ ..
ـ لا يا أمى ..
ـ أحب أن أحــذرك من النســـاء فى فرنســا .. فهن غير طيبات .
أواه يا أمى ! .. لا أزال فى نظرك طفـــلا .. فلم لا أدس رأسى فى حجرك وأبكى ؟ .. ماذا يحملنى على التجلد والتشدد ؟ .. كم أود أن أبكى وأن أسمع مواساتك لى وتخفيفك من لوعتى ؟ فانى فى الحق لم أجاوز دور الطفولة كثيرا .. ولم يزل بنطلونى القصير معلقا بين ملابسى فى غرفتى .. ما اقرب العهد بهذه الايام ؟ .. لم ذهبت وانطوت ؟ ..
اجبتها بكل ما استطعت من هدوء :
ـ لا يوجد نساء بتاتا فى نواحينا يا أمى ..
ـ وحافظ على نفسك فى الميدان يابول ..
أواه يا أمى ! .. لم لا أضمك بين ذراعى ونموت معـــا ؟ .. ما أتعسنا ! ..
أجبتها : نعم يا امى .. سأعمل بوصيتك .
ـ سأدعو لك لله وأصلى لأجلك كل يوم يابول .
أواه يا أمى ! .. لننهض معا ولنعد الى الايام الماضية بعيدا عن هذا البؤس الذى يطوينا .. الى حيث كنا انا وانت وحدنا .
قالت : ربماامكنك أن تقوم بأعمال اقل خطرا .
ـ نعم يا أمى .. من السهل أن اعمل فى مطبخ الجيش .
ـ افعل اذن . واذا قال زملاؤك شيئا .
ـ لا يقلقنى هذا يا أمى .
تنهدت . ورايت شحوب وجهها من خلال الظلام .
قلت لها : لابد ان تذهبى وتنامى الآن يا أمى .

لم تجب . فنهضت وأسدلت غطاء نومى فوق كتفيها .
اعتمدت على ذراعى . كانت تتألم .. ولذلك رافقتهـــــا الى غرفتها . وبقيت معها قليلا .
قلت لها : ولابد أن تستردى صحتك يا أمى قبل أن أعود فى المرة الثانية .
ــ نعم .. نعم يا بنى ..
ــ يجب الا ترسلى الى ما عندك يا أمى . فان الأكل عندنا متوافر فى الجيش ويمكنكم الانتفاع به هنا .

***

ما أشد وحشتها ولوعتها وهى راقدة فى فراشها ، تلك الأم الرءوم التى تحبنى حبا عميقا تتضاءل ازاءه الدنيا فى نظرها ! .
وفيما كنت أزايل الغرفة قالت لى بسرعة :
ــ عندى لك زوجان من (الكالسونات) المصنوعة من الصوف ستشعر فيها بالدفء ويجب الا تنسى اخذها معك .
ــ أواه يا أمى ! . انى أعرف كم كلفتك هذه « الكالسونات » من مرارة الانتظار والصبر والرجاء ! .
أماه ! . لم كتب على أن أفارقك ؟ . من غيرك له حق على ؟ .
هأنذا واقف فى مكانى وانت راقدة فى سريرك . وفى نفسينا شجون وشئون كثيرة نريد أن نبثها ونتبادلها . لكننا لن نفعل .
ــ أسعدت مساء يا أمى .
ــ أسعدت مساء يا ولدى .
كانت الغرفة مظلمة .. ووصل الى سمعى صـــوت تنفس أمى ودقات الساعة .. وفى خارج النافذة كانت الريح تصفر والاشجار تهتز ..
تعثرت فى المشى فى عدتى التى جهزت ووضعت فى هذا المكان حيث تقرر أن أغادر البيت فى الصباح الباكر .
ولما عدت الى فراشى اخذت أعض وسادتى .. ورحت اقبض بكلتا يدى على أعمدة السرير .
ما كان يجب أن احضر الى هنا .. كنت فى الميدان لاهيا يائسا .. ولن أعود بعد الآن كما كنت .
كنت جنديا .. ولست الآن سوى كتلة من الألم والتوجع لنفسى .. ولأمى .. ولكل ما هو رمز للقنوط واليأس المرير .
ليتنى لم أحضر الى هنا فى أجازة .

الفصل الثامن

كنت أعرف من قبل المعسكر الذى تقرر ان امضى فيه الشهر التالى لأجازتى .. ففيه تولى هملستوس تدريب جادن الفنون العسكرية . لكننى لا أكاد أعرف الآن أحدا ممن فيه .. فكل شيء فى تغير كما هى العادة .. ولم أجد سوى بعض افراد اتيح لى أن ألتقى بهم من قبل فى مناسبات عرضية .

ورحت أؤدى الواجبات العسكرية المألوفة بشكل آلى .. وكنت اقضى المساء فى « بيت الجنود » حيث توجد الصحف ، لكنى لم أجد رغبة فى مطالعتها .. غير انه كان يوجد (بيانو) كنت أبتهج بالعزف عليه .. وكان يشرف على خدمة البيت فتاتان احداهما صغيرة السن .

وكان المعسكر محوطا بالاسلاك الشائكة المرتفعة .. وكان يتعين علينا اذا عدنا ليلا متأخرين الى المعسكر ان نبرز التصاريح اللازمة .. لكن كان يسيرا بالطبع لمن هم على صلات حسنة بالحراس أن يمروا بغير عناء .

وعلى امتداد المعسكر كان يوجد سجن الأسرى الروس يفصله عنا سياج من الاسلاك .. لكن الأسرى كانوا يصلون الينا برغم وجود هذا السياج .

وقد كانوا ضخام الاجسام ذوى لحى .. لهم مظهر عصبى مخيف .. لكنهم كانوا على حظ كبير من الاستكانة والخنوع .

وكانوا يحومون حول معسكرنا ويلتقطون الفضلات الباقية من الطعام . واذا قررت أن طعامنا كان تافها لا يسمن ولا يغنى من جوع ، لتسنى للانسان أن يتصور تفاهة الفضلات التى كان الاسرى يعثرون عليها بين القمامة والقاذورات . على انهم كانوا ينبشونها ويستخرجونها من العلب بشراهة وكأنهم عثروا على كنز عظيم .

ان مشهد هؤلاء الاسرى الاعداء يفسح امام الانسان مجالا

للتفكير . فقد كانت تبدو عليهم دلائل السذاجة ، وتقاطيع وجوههم تشعر بأنهم من الفلاحين الذين كان يجب فى هذا الوقت أن يفلحوا الارض ويجنوا ثمار غرسهـــا . وكانت تلوح عليهم امارات الطيبة كأنهم فى مواطنينا الفلاحين .

والواقع ان منظرهم وهم يستجدون ويمدون لنا أيديهم التماسا لما يأكلونه كان يثير فى النفس دواعى الحزن والرثاء .. فقد ضعفت أجسادهم وهزلت هياكلهم لحاجتهم الى ما يسدون به رمقهم . بل اننا نحن لم نكد نجد الطعام الكافى .

وكان بعض رجالنا يركلونهم بالاقدام ، فيسقطون على الارض .. لكن هذا الفريق نادر . وكانت الغالبية الكبرى منا لا تفعل شيئا نحوهم . بل تتجاهل وجودهم .

وكانوا يحضرون الى معســكرنا ليــلا ، ويســتبدلون بالخبز ما يمتلكونه ، وكانت الصفقات تتم غالبا بنجاح .. فقد كانت لهم أحذية طويلة من جلد متين طرى .. فى حين كانت أحذيتنا خشنة رديئة . وكان زوج الحذاء يباع فى مقابل رغيفين أو ثلاثة .. أو مقابل رغيف وقطعة من السجق .

على ان هؤلاء الروس فقدوا كل ما يملكون منذ زمن طويل .. ولم يكونوا يرتدون فى هذا الوقت سوى أسمال بالية تثير الشفقة والألم .. وكانت الادوات التى يبادلون بها هى فى الغالب بعض الزخارف والادوات التى كانوا يصنعونها من بقايا المقــذوفات النحاسية .. ومع انهم كانوا يجهدون أنفسهم فى صنع هذه الادوات التافهة ، فلم يكونوا يظفرون فى مقابلها الا ببعض لقم من الخبز بالطبع .

والواقع ان جنودنا الفــلاحين كانوا مكرة شحيحين أثناء هــذه المساومات .. فقد كان أحدهم يضع لقمة الخبز أو قطعة السجق تحت أنف الروسى المسكين حتى يمتقع وجهه شراهة وتجحظ عيناه .. وسرعان ما يتنازل فى هذه اللحظة عن كل ما يملكه .

***

وكثيرا ما اسندت الى حراسة الأسرى الروس .. وكانوا يتسللون فى الظلام الى حافة السياج ، فيسندون رءوسهم اليه ، ويقفون جنبا لجنب على امتداده ، ويستنشقون الهواء الذى يهب من ناحية الغابات .

ولم يكونوا يتكلمون الا قليلا .. وقد خيل الى انهم أكثر منا تعاطفا واخوة فيما بينهم .. لكن ربما كان مرجع هذا الى أنهم يحسون بأنهم أسوأ حظا منا .. ومهما يكن من شيء ، فان الحرب قد انتهت فيما يختص بهم ، وان كانت حياة البؤس والمرض التى يحيونها لا تحبب الحياة الى النفس .

وقفوا صفا على امتداد الاسلاك .. وأحيانا كان يذهب احدهم فيجيء سواه .. ولزم أغلبهم الصمت .. وراح بعضهم يستجدى عقب سيجارة .

رأيت فى الظلام أشباحهم ولحاهم تعبث بها الريح .. ولم أكن أعرف شيئا عنهم سوى أنهم أسرى .. وهذا عين ما كان يقلقنى . فان حياتهم بريئة لا تشوبها جريمة .. ولو أتيح لى أن اتصل بهم عن كثب وأعرف أسماءهم ، وانماط حيـــاتهم ، وما هى آمالهم ومتاعبهم ، اذن لرق شعورى من ناحيتهم وزاد عطفى عليهم . ومهما يكن من شيء فقد كانوا فى نظرى رمزا للخليقة المعذبة المتـألمة ، وصورة ناطقة لبؤس الحياة وأحزانها ، ودليلا حيا على قسوة الانسان ووحشيته .

ان كلمة آمرة قد خلقت من هذه الاشباح الصامتة أعداء لنا . وكلمة آمرة قد تجعلهم أصدقاءنا .

ان هذه الوجوه الساذجة البريئة مسوقة الى بلاء الحرب رغم ارادتها . فما أحرانا أن نرق لأصحابها ونتنزع من نفوسنا ما يساورنا من حقد عليهم وما نضمره من شر لهم .

لكننا جميعا برغم هذا كله لا نتردد فى أن نقتل بعضنا بعضا اذا أخلى سبيلهم واستعادوا حريتهم .

جزعت .. ولم أجرؤ على التمادى فى هذه الهواجس .. فهى تؤدى بى الى هاوية عميقة .. وليس هذا أوان التفكير فيها . لكنى لن أنسى هذه الخواطر . بل سأحتفظ بها وأختزنها فى نفسى حتى تضع الحرب أوزارها .

أخذ قلبى يخفق سريعا .. فقد وجدت فى هذه الافكار الهدف الذى كنت انشده .. والغاية السامية العظمى التى كنت أتطلع اليها فى الخنادق .

انى رأيت فى هذا الاتجاه العامل الوحيد الممكن لتوطيد الحيـاة بعد هذه الفاشية التى قضت على جميع المشاعر الانسانية . وهى

غاية اذا كرس الانسان نفسه لها ، كانت جديرة بهـذه السنوات الهائلة المخيفة .

أخرجت سجائرى .. فجعلت أشطر كل سـيجارة شطرين وأعطيها للروس الاسرى .. فأحنوا رءوسهم أمامى وأشعلوا السجائر .. ورأيت نقطا حمراء متوهجة تبرق فى الظلام .. فـوجدت فيها عزاء لنفسى .. وتسكينا لهواجسى .

***

كان الروس الاسرى يموتون بمعدل واحد كل يوم تقريبا .. ومات أحدهم فى صباح يوم تكاثف ضبابه أثناء قيامى بالحراسة .. فتولوا دفنه بحضورى .. وراحوا يرتلون معا نشيدا جنائزيا مؤثرا . ولم يستغرق الدفن سوى دقائق معدودات .

وفى المساء عادوا الى وقوفهم على امتـداد السياج يستنشقون هواء الغابات .

وعلى توالى الايام عرفت بعضهم ممن كـانوا يتـكلمون الالمانية قليلا . وكان بينهم موسيقى قرر أنه كـان عازفا على الـكمان فى برلين .. ولما علم أننى أعزف البيانو أحضر كمانه وأخذ يعزف .. وجلس زملاؤه على الارض مسندين ظهورهم الى السياج .. ووقف الموسيقى يعزف على الكمان تلوح على وجهه أحيـانا تلك النظرة الشاردة السابحة التى تبدو على وجوه العازفين على الكمان .

راح يعزف أغانى شعبية جعل الباقون يرددونها معه .. ثم كفت أصواتهم عن الترديد ، وبقى الكمان يعزف وحده ألحانا شجية تبعث فى النفس الحزن والاكتئاب .

***

لم اظفر بأجازات ايام الآحاد نظرا لحصولى على أجازة طويلة .. لذلك زارنى أبى وأختى الكبرى يوم الاحد الاخير قبل ذهابى الى الميدان لرؤيتى وتوديعى . فأمضينا شطرا من النهـار فى (بيت الجنود) . وعند الظهر أخذنا نتجول حول الغابات .

كانت الساعات شديدة الوطأة على نفوسـنا . ولم نجد مادة للحديث الا موضوع مرض أمى . وتبين الآن بجـلاء انها مصـابة بالسرطان . وقد ذهبت الى المستشفى وستجرى لها عملية قريبا . ويرجو الاطباء شفاءها بعد العملية . لكننا لم نسمع أن مريضـا بالسرطان نال الشفاء .

سألت أبى : فى أى مستشفى هى ؟ .
فأجاب : فى مستشفى لويزا .
ــ فى أى درجة ؟ .
ــ في الدرجة الثـــــالثة . ولابد أن ننتظر حتى نعرف أجر العملية . وقد رغبت هى نفسها ان تكون بالدرجة الثالثة ، حتى يتيسر لها ، كما قالت أن تجد حولها أناسا يؤنسونها ، وفوق هذا فهذه الدرجة أرخص أجرا .
ــ اذن فهى الآن راقدة فى المستشفى مع الجميع . ليتها كانت تستطيع أن تنام نوما مريحا .
أومأ أبى برأسه . وكان وجهه مخددا كثير التجاعيد . فقد لازم المرض أمى ولم يفارقها منذ عهد طويل . ومع انها لم تذهب الى المستشفى الا بعد أن أرغمها تطور المرض على ذلك ، فان مرضها قد استنفد مالا كثيرا . وكانت حياة أبى مكرسة للانفاق عليهـــا ورعايتها .
قال أبى : لو كنت أعرف أجر هذه العملية .
ــ الم تستفسر ؟ .
ــ لم أستفسر مباشرة .. فانى لا أقدر على ذلك .. ان الجراح قد يتردد .. وهذا ما لا أريده .. يجب اجراء العملية لأمك مهما كلفنا ذلك .
فكرت فى هذا الموضوع بمرارة .. فهكذا الشأن معنا .. ومع الفقراء دائما .
هم لا يجرؤون على السؤال عن أجر مثل هذه العملية .. بل يعذبون أفكارهم سلفا بالتفكير فيها .
أما الاغنياء الذين لا يحفلون بالثمن ، فانهم يستفهمون عن الاجر بكل بساطة .. ولا يتردد الاطباء معهم أو يؤولون سؤالهم تأويلا ظالما .
قال أبى : ان تكاليف (الغيار) بعد العملية كثيرة جدا .
ــ هل عندك مال لذلك ؟ .
هز أبى رأسه وأجاب :
ــ لا .. لكن بوسعى أن أضاعف ساعات عملى .
كنت أعرف هذا .. فهو سيضطر الى العمل المتواصل حتى منتصف الليل .. ولا يتناول سوى طعام زهيد عند الساعة الثامنة

مساء .. ثم يواصل عمله المضنى .

حاولت أن أسرى عنه . فجعلت أقص عليه نوادر الجنود وأحدثه عن مداعباتهم وهزلهم .

وأخيرا رافقت أبى وأختى الى المحطة . فقدما لى علبة من المربى وسلة من الكعك صنعتها أمى لأجلى .

ولما سار بهما القطار عدت الى المعسكر .

وتناولت فى المساء بعض الكعك والمربى .. لكنى لم أجد شهية . وخطر لى أن أعطيها للروس الأسرى .

على أنى تذكرت أن أمى قد صنعتها لى بنفسها ، وانها احتملت الآلام أمام الموقد فى سبيل طهيها لى بيديها .. ولذلك عدلت عن فكرتى .. واحتفظت بالباقى .. وأعطيت للأسرى كعكتين .

الفصل التاسع

سافرنا أياما .. وظهرت الطيارات فى الجو . واجتزنا خطوط النقل . فاذا المدافع مكدسة فيها . ثم انتقلنا بالسكة الحديدية الخفيفة .

وجعلت أبحث عن كتيبتى . لكن لم يعرف أحد أين رابطت .. ورحت أمضى الليل هنا وهناك أحصل على مؤونتى وأتلقى معلومات غامضة ثم أستأنف طريقى حاملا عدتى وبندقيتى .

ثم سمعت ان الكتيبة أصبحت من الكتائب الطائرة التى توجه الى حيث يشتد القتال . فلم أجد فى هذه الانباء ما يسر الخاطر أو يشرح النفس . وفهمت كذلك أنها منيت بخسائر جسيمة فى الرجال . ولما استفسرت عن كات وألبرت لم أجد من يعلم عنهما شيئا .

وبعد بحث شاق طويل حصلت أخيرا على معلومات وثيقة بشأن مقر الكتيبة .. وذهبت فى أصيل أحد الأيام الى مكتب القيادة .

حجزنى الضابط المنوب . وعلمت منه أن الكتيبة ستعود من الميدان فى ظرف يومين . ولا فائدة من ضمى الآن اليها .

ثم سألنى : كيف وجدت الاجازة ؟ . هل تمتعت بها ؟ .

فأجبت : الى حد ما .

فقال متنهدا : نعم .. الاجازة ممتعة اذا لم يضطر الانسان للعودة بعدها .. وشبح العودة هو الذى يفسد الايام الاخيرة منها ..

وانتظرت حتى وصلت الكتيبة فى الصباح المبكر .. ملطخة .. قذرة .. متألمة .. متضجرة .

اندفعت بين أفرادها باحثا .. فعثرت أخيرا على جادن وكات وموللر وكروب .. ووضعنا فراشنا جنبا الى جنب كشـــأننا دائما ..

كنت أشعر بقلق كلما نظرت الى هؤلاء الزملاء ، دون أن أدرى مصدره .

على انى أحضرت باقى الكعك والمربى ووزعتها عليهم .. فقال كات وهو يمضغ :

ـ هل هى من عند أمك ! .

أومأت ايجابا .. فقال :

ـ لذيذة .. انى عرفتها من طعمها .

كدت أبكى .. ولم أعد أقوى على كبح عواطفى وتمالك شعورى . لكننى لن ألبث أن أعود الى سالف حالتى ما دمت مع كات وألبرت . فهنا مكانى .

وقال كروب همسا قبل أن ننام :

ـ انت سعيد الحظ .. يقال اننا سنذهب الى روسيا .

روسيا ! . انالحرب فيها ليست طاحنة .

وكان قصف المدافع يدوى بعيدا صادرا من الميدان . واهتزت بتأثيره جدران الكوخ .

***

جرت الاستعدادات على قدم وســـــاق .. وصدرت الاوامر بتفتيشنا تفتيشا دقيقا .. واستبدلت بالادوات القديمة الممزقـــة أدوات جديدة نظيفة .. وكان نصيبى سترة جديدة .. وفاز كات بملابس كاملة .

سرت اشاعة بأن الحرب توشك أن تنتهى .. لكن كانت اشاعة ذهابنا الى روسيا أقرب احتمالا .. لكن اذا صح هذا فعلام هــذه الملابس الجديدة فى روسيا ؟! .

وأخيرا تبينت الحقيقة .. وعرفنـــــا ان الامبراطور قـــادم لاستعراضنا . ومن هنا كانت هذه الاستعدادات .

مضينا ثمانية أيام كاملة فى استعداد وتدريب وتنميق ، حتى ضقنا ذرعا .. فان ويلات الميدان أخف فى نفوسنا وقعا من هذه المظاهر الرسمية المصطنعة .

وأخيرا جاءت اللحظة المشهودة .. فوقفنا صـــفوفا محشودة ، وجعل الامبراطور يمر بيننا .

شعرت بخيبة أمل .. فقد كنت أتوقع اعتمادا على الصور التى رأينـــاها فى الصـــحف ان ارى الامبراطور اضخم جثـــة ، وامتن

بنيانا ، وأرعد صوتا مما رأينا وسمعنا .

ووزع الامبراطور بعض الاوسمة .. وخاطب هذا وذاك ببعض عبارات قصيرة .. ثم انفضت الصفوف أخيرا .

ودارت بيننا بعد ذلك مناقشة فى صدد هذه الزيارة ، فقال جادن فى دهشة :

ـ اذن فهذا هو الامبراطور العظيم ! . ويجب على كل انسان أن يقف أمامه منتصب القامة متصلب الاعضـــاء ! . ترى هل يقف هندنبورج أمامه مثل هذه الوقفة ؟ .

فأجاب كات : بلا ريب ..

لم يقتنع جادن .. دارت مناقشة بين الاثنين حول مســـألة الوقوف ، فقال كات اخيرا :

ـ المهم ان عليك أن تقف أمامه منتصبا متصلبا .

على ان جادن بقى على دهشته . وذهب به خياله الواسع الى مدى بعيد فقال :

ـ انتظروا .. لكنى لا أصدق ان الامبراطور يذهب الى المراحيض مثلما نذهب ! .

ـ يمكن ان تراهن بحذائك على ذلك .

فقال كات :

ـ ان سحابة من أمعائك تبخرت الى عقلك يا جادن . ولذلك أنصح لك أن تسرع الى المراحيض حتى يصفو تفكيرك .. ولا تتـكلم هذا الـكلام الصبيانى .

عمل جادن بالنصيحة . وقال البرت بعد قليل :

ـ أحب أن أعرف هل كان يمكن الا تقوم الحرب لو ان الامبراطور قال (لا) .

فقلت له : انا واثق ان الحرب كانت تقـــوم برغم ذلك . فان الامبراطور كان راغبا عنها أول الأمر .

ـ وهل لو كان نحو عشرين او ثلاثين رجلا فى العالم ، عـدا الامبراطور ، قالوا (لا) . فهل كانت الحرب تنشب رغم ذلك ؟ .

فأجبت : لا اظن . لكنهم قالوا (نعم) لسوء الحظ .

فاستطرد البرت كروب : ان الموضوع يبدو عجيبـــا اذا فكر الانسان فيه . فنحن هنا للدفاع عن وطننا . والفرنسيون هنـاك للدفاع عن وطنهم . فأين الحق اذن فى الجانبين ! .

فقلت ، وان كنت لا أؤمن بما قلت :
ـ ربما كان الحق فى جانب الطرفين .
فاستطرد البرت :
ـ حسنا . لكن مدرسينا وقساوستنا وصحفنا يقولون بأن الحق في جانبنا وحدنا . وهو ما نرجو أن يكون صحيحا . لكن المدرسين الفرنسيين وقساوستهم وصحفهم يقولون ان الحق فى جانبهم هم . فما رأيك فى هذا ؟ .
فقلت : لا جواب عندى لهذا .. لكن أينما كان الحق . فالحقيقة الواقعة أن الحرب دائرة .. وكل شـــهر يمضى يضم اليها دولا جديدة .
وعاد جادن .. واشترك فى الحـــديث .. وراح يسأل كيف تنشب الحرب .. فأجاب البرت فى شيء من التسامى :
ـ غالبا تنشب الحرب باعتداء قطر على قطر آخر .
فتظاهر جادن بالغباوة فقال :
ـ قطر !؟ . لا أفهم .. ان جبلا فى ألمانيا لا يمكن أن يعتدى على جبل فى فرنسا .. ومثل هذا الكلام ينطبق على الانهـــــار .. والغابات والحقول ..
فأجاب كروب ساخطا :
ـ هل أنت حقا غبى الى هذا الحد ؟ . أو انك تمزح .. انا لا أعنى ما تقول .. لكنى أعنى الاعتداء .. اعتداء الناس بعضهم على بعض .
فقال جادن : اذن فلا شأن لى هنا . انا لم أشـــعر بأن أحدا اعتدى على .
فقال البرت باستياء :
ـ الاعتداء لا يقع على المتشردين امثالك .
فقال جادن : اذن فيمكن أن أعود فى الحال الى بلدى .
ضحكنا جميعا .. وقال موللر :
ـ يا غبى ! . هو يعنى الشعب فى مجموعة .. أى الدولة .. وهى التى يقع عليها الاعتداء .
فقال جادن :
ـ الدولة ! . يعنى رجال البوليس .. والجنود .. والضرائب .. اذا كان هذا ما تعنيه ، فأرجو أن تعفينى من الحديث .

وقال كات :

ــ أصبت . للمرة الأولى فى حياتك تتكلم كلاما معقولا يا جادن . ان الدولة والشعب شيئان مختلفا .

فقال كروب :

ــ بل هما شيء واحد . بدون الدولة لا كيان الشعب .

ــ صحيح .. لكن لا تنس ان الغالبية العظمى منا اناس سذج بسطاء .. وغالبية الشعب فى فرنسا كذلك مؤلفـــة من العمال والصناع وصغار الموظفين . فما الذى يدفع اذن حدادا فرنسيا أو حذاءا فرنسيا للاعتداء علينا ؟ . لا .. الحكام هم السبب .. انى لم أر فى حياتى فرنسيا واحدا قبل مجيئى الى الميدان . وكذلك الشأن فيما يخصهم . ان الشعب الفرنسى لا ضلع له فى الحرب كالشعب الألمانى .

فقال جادن :

ــ اذن فما هو سبب الحرب الحقيقى ؟ .

فأجاب كات وهو يهز كتفيه :

ــ لابد من وجود أناس معينين يفيدون من الحرب .

فقال جادن :

ــ حسنا .. لست واحدا منهم .

ــ لا انت .. ولا أى واحد هنا .

فقال جادن باصرار :

ــ اذن فمن هم الذين ينتفعون بالحرب ؟ . لا يمكن أن يــكون الامبراطور .. لأنه يملك كل ما يشتهى .

فقال كات :

ــ لست واثقا من هذا .. فان عهده لم يتوج بحرب حتى الآن . ولابد لكل أمبراطور عظيم من حرب واحدة على الاقل تشب فى عهده والا خمل ذكره ولم يذع صيته . ارجعوا الى كتبكم المدرسية .

وقال ديترنج : وكذلك شأن القـــواد . فهم يصيبون شهرة فى الحرب .

فأردف كات : بل هم يشتهرون اكثر من الأباطرة .

واستطرد ديترنج فى سخط :

ــ ومن المؤكد ان هناك هؤلاء اناسا آخرين يفيدون من اضرام الحرب .

فقال البرت كروب :
ـ فى رأيى ان المسألة لا تعدو ان تكون لونا من الحمى . فكل انسان راغب عن الحرب . وفجـــأة تشب نارها . نحن لا نريد الحرب ، وكذلك يقول الآخرون . ومع ذلك فنصف العالم غارق فيها .

فقلت : لكن الطرف الآخر يتجنى علينا . أنظر الى الاكاذيب التى يذيعونها عنا . اذ يقولون اننا نأكل أطفال البلجيكيين . ان الذين يختلقون هـذه المفتريات جـديرون بأن يشنقوا . هم الجنــــاة الحقيقيون ..

فقال موللر وهو ينهض :
ـ مهما يكن . فمن الخير أن مسرح الحرب موجود هنا ، وليس فى المانيا . أنظروا الى الدمار الذى تحدثه القنابل .

فأجاب جادن : أصبت . لكن خير من هذا كله ألا توجد حرب بتاتا ..

واستلقى ألبرت فوق الحشائش وقال فى سخط :
ـ بل الافضل الا نتحدث عن هذا الموضوع اللعين .

فقال كات : سواء تحدثنا أو لم نتحدث ، فلن نغير هذا شيئا من الواقع .

ومما زاد استياءنا فى الواقع ان الاوامر صدرت باعادة الادوات الجديدة وارتداء الاسمال القديمة البالية . فقد أعيرت الاولى لنا لأجل التفتيش فقط .

عدنا الى الميدان بدل الذهاب الى روسيا .. وفى طريقنا اليه مررنا بغابة دمرتها القذائف عن آخرها .. وتناثرت الحفر العميقة فى أرجائها . فقال كات :
ـ هذا تأثير المدفعية الثقيلة .. أنظر الى تلك الشجرة .

رأينا بعض القتلى معلقين فى الشجرة التى اشار اليها كات .. وكان بينهم جندى عار لم تزل خوذته فوق رأسه ، وقد بقى نصفه الأعلى وذهب نصفه الأسفل .

ورأينا ذراعيه منفصلتين عن جسده ، وملابسه متناثرة هنــا وهناك . واستخلصنا من منظر الدماء السائلة أن هذه الكارثة قد حدثت منذ وقت وجيز .

ولم يكن فى وسعنا الا ان نخطر رجال النقالات فى أول محطة

مررنا بها .. فلم يكن من شأننا ان نسلبهم واجبهم .

تقرر ايفاد فصيلة لاستطلاع قوة الاعداء الحقيقية .. ولما كنت أشعر بانعطاف شديد نحو زملائى منــذ عــودتى من الاجازة ، فقد تطوعت لمرافقتهم فى هذه المهمة .

اتفقنا على الخطة .. وتسللنا من خلال الاسلاك .. ثم تفرقنا وأخذ كل فرد يزحف وحده .. وما هى الا بضع دقائق حتى وجدت حفرة غير عميقة .. فهبطت اليها .. وأخذت أتطلع منها .

كانت نيران مدافع الماكينات معتدلة .. لكنها كانت تنصب من جميع الجهات .. فيضطر الانسان أن يحتمى منها فى الحفـــر دائما .

وكانت الصواريخ المعلقة ترتفع فى الفضاء بين حين وآخر .. فتبسط فوق الارض ضوءا شاحبا .. لكنها لا تلبث أن تخمد .. ويسود الظلام أشد كثافة .

وفوق هذا فقد سمعنا ان فى خنادق الاعداء أمامنا فرقا سوداء .. وهو ما يضاعف مصاعبنا .. فان سواد ملابسهم يحول دون رؤيتنا لهم ، كما انهم بارعون كذلك فى التنقل والطواف .

على أنهم كانوا برغم ذلك أغبياء .. فان تحمسهم للتدخين كان ينسيهم كل حيطة .. فيزحفون وفى أفواههم سجائر مشتعلة .. وقد تمكن كات وكروب مرة من اصطياد دورية منهم رغم الظلام .. ولم يكلفهما الامر غير تسديد البنادق الى السجائر المتوهجة فى أفواه الجنود الزاحفين .

انفجرت قنبلة حولى .. فذعرت لأنى لم أشـــعر باقترابها .. وفى نفس الوقت استولى على خوف غريب .. فقد ألفيتنى وحيدا عاجزا فى الظلام . وربما كانت عينان تراقبانى فى الظـلام من الحفرة المجاورة . والى جانبهما قنبلة معدة لقذفهـــا على وتمزيق أطرافى أربا .

بذلك بذلت جهدا لاستجماع أفكارى المضطربة والتغلب على هذا الاحساس .. ولم تكن هذه بمهمة الاستكشاف الاولى التى قمت بها ولا هى حافلة بالخطر .. لكنها كانت الاولى منـــذ عودتى من الأجازة . وفوق هذا فقد كانت طبيعة هذه الارض غريبة عنى .

اقنعت نفسى بأن خوفى هذا على غير أساس . وانه لا يوجد أحد فى الظلام يراقبنى .. والا لقضى على قبل الآن .

وعبثا حاولت أن أنفى هذه الهواجس من ذهنى .. فقد اختلطت أفكارى .. وتعاقبت صور مزعجة فى مخيلتى . وخيل الى انى أرى فوهة بندقية مسددة الى رأسى ، وانهـــا تدور معى حيثما درت وأينما اتجهت . وأخذ العرق يسيل فوق جسدى .

بقيت جاثما فى الحفرة .. ولما تطلعت الى ساعتى ألفيت الوقت يمر بطيئا .. واستولت على رغبة جامحة فى البقاء حيث كنت .. وسمرت أطرافى فى الارض .. وكلما حاولت رفع رأسى وتحريك أعضائى كنت أزيد غوصا فى الحفرة وابتعادا عن حافتها .

على ان هذه الموجة العـــــارضة لم تلبث ان انحسرت عنى .. واحسست بالخجل وتأنيب الضمير من هذا الضعف الذى استسلمت له .. وسرعان ما رفعت نفسى قليلا لالقاء نظرة حولى ..

حدقت طويلا فى الظلام .. ولما رأيت قنبلة مضيئة تخترق الفضاء ، غصت فى الحفرة بسرعة .

ثار فى نفسى كفاح بين مغادرة الحفرة والبقاء فيها .. وقلت لنفسى بأن هذا تأثير الاجازة .. ولما أحسست بأنى أكاد يغمى على رفعت نفسى رويدا رويدا وجذبت نفسى الى أعلى .. وبقيت معلقا فوق الحفرة .. نصفى فوق سطح الارض والنصف الثانى مدلى فى بطنها ..

وفجأة سمعت أصواتا .. وسرعان ما عدت الى بطن الحفرة .. فمن اليسير تمييز الاصوات المريبة رغم ضوضاء المدافع .

جعلت أنصت .. فجاءت الاصوات من خلفى .. وفهمت منها ان رجالنا يتقدمون فى الخنادق .. ثم سمعت أصواتا مكتومة قدرت ان بينها صوت زميلى كات .

سرت حرارة جديدة فى صدرى .. فان الاصوات الخـــافتة الصادرة من الخنـــادق خلفى نقلتنى من عالم الوحشية والفزع والخوف من الموت الى عالم الطمأنينة والسكينة والحيـــــاة ! . ولا غرو فهى أصوات زملائى .

***

تسللت من الحفرة بحذر واخذت أزحف فى خط ملتو كالثعبان .. وكنت أبذل جهدى لحفظ معالم الطريق فى ذاكرتى .. وجعلت اتطلع حولى لمعرفة توزيع نيران المدافع حتى يتسنى لى أن أعود فى سلام .. واخيرا حاولت ان اتصل بزملائى .

فتقدمت مسافة طويلة .. ثم انعطفت فى خط منحن .. لكنى لم أتمكن من الاتصال المنشود .. على أننى كنت أشعر باطمئنان كلما دنوت من الجهة التى أقصدها .. ولم أرد أن أتسرع حتى لا يحدث لى ما لا أحب .

وفجـــاة استولى على خوف جديد . فانى لم أعـد أعرف الطريق . وانسللت الى احدى الحفر بهدوء وحاولت أن أحـدد مكانى ، حتى لا أضل طريقى وأهبط فى غير خنادقنا .

وأرهفت حواسى بعد قليل وجعلت أنصت . لكنى لم أتحقق من شىء . وكان تشابه الحفر عاملا جـوهريا فى زيادة اضطرابى ، وطمس معالم الطريق الذى يجب أن أسلكه . ولما خطر لى أن أزحف فى خط مواز لخطوطنا ، وقد أتقدم هكذا الى ما لا نهاية فقـد استقر رأيى أخـيرا على أن أنعطف مرة ثانية وأتقـدم فى شبه دائرة .

تقدمت زحفا على الارض المملوءة بالشظايا الشائكة كالنصال . وفجأة انفجرت قنبلة . ثم تلتها اثنتان . وانهمر سيل القنـابل كالمطر . وأخذت مدافع الماكينات نصب نيرانها حامية . ولم يكن أمامى الا أن أبقى حيث انا فى قاع احدى الحفر . واستخلصت من هذه الدلائل ان هجوما يوشك أن يحدث . وما فتئت الصواريخ أثناء ذلك تشق حجاب الظلام وتنطلق متلاحقة .

انكمشت على نفسى فى حفرة كبيرة بها ماء وصل الى وسطى . واستقر عزمى عند حدوث الهجوم ان اغوص فى الماء الموحل حتى لا يبقى فوق سطحه سوى أنفى وفمى .

وسكتت النيران فجأة . فغصت فى الماء حتى فمى . وبقيت فى مكانى جامدا . وكنت أسمع حولى أصواتا تقترب ومعادن تصطك. ثم مرت الموجة وابتعدت عنى .

ثم ساورنى خوف جديد . فماذا يكون اذا وثب أحد فجأة الى الخندق ، ورآنى فى داخله ؟ .

انتزعت خنجرى بسرعة تحت الماء ، وأمسكته بيدى على تمام الأهبة .. وقررت أن أغمده فى عنق الطارق فورا قبل أن يفيق من مفاجأته ويصرخ .

فى هذه اللحظة فتحت مدفعيتنا أفواههـا . واستقرت قذيفة بقربى فاشتد سخطى وجعلت ألعن . لم يبق الا أن أموت بنيران مدافعنا ! .

واستولى على نوبة جنونية . على انى لم أملك الا أن اتوجع واصلى في سرى ..

كانت القنابل تدوى في اذنى . ولو قام رجالنا بهجوم مضاد لكان فى هذا نجاتى . وألصقت رأسى بالارض وجعلت انصت الى الرعود الداوية ، ثم أرفعه وأصغى الى الأصوات الصادرة من أعلى .

وأخذت مدافع الماكينات ترسل قذائفها . وكنت أعلم ان أسوارنا الشائكة حصينة لا يسهل تدميرها ، وان أقساما منها مشحونة بالتيار الكهربائى . ثم انهمر الرصاص من البنادق . فعلمت أن الاعداء لم يقتحموا خطوطنا ، وأنهم اضطروا للتقهقر .

غصت فى مكانى ثانية مضعضع الحواس . وازدادت أصوات الزحف والتصادم وضوحا فى سمعى . وسمعت أصواتا صارخة داوية تتخلل هذه المعمعمة .. فعلمت ان الاعداء يصلون نارا حامية . وأن الهجوم قد انقلب ضدهم ..

***

خفت حدة المعركة . واخذت الخطوات تتراقص فوقى . وفيما كنت أهم بالتحرك فى مكانى سقط جسم ثقيل فى الحفرة فوقى .. وتمدد أمامى ..

لم أفكر لحظة . وصوبت طعنة نجلاء . .شعرت بالجسم ينكمش ثم يسقط . ولما رفعت يدى ألفيتها لزجة مبللة ..

أخذ الرجل يحشرج .. وخيل الى أن أنينه وشهيقه أصوات داوية صارخة ترشد الأعداء الى مكانى .. وأحسست برغبة قوية فى سد فمه وحشوه بالتراب ، وطعنه مرة ثانية وثالثة حتى يسكن ولا يفضحنى .. على انى لم ألبث أن تغلبت على أعصابى . لكنى شعرت بضعف شديد وخور تام فى قواى حتى لم أعد أقوى على رفع يدى وطعنه من جديد .

ولذلك زحفت الى أقصى الحفرة ووقفت هناك أحدق اليه وكأن عينى ركزتا فيه . وبقيت يدى قابضة على الخنجر ، على تمام الاستعداد للوثوب فوقه اذا بدرت منه حركة .. لكنه لم يفعل . ولم أسمع سوى صوت حشرجته .

رأيته بجلاء .. وساورتنى رغبة واحدة فى هذا الوقت .. هى مغادرة الحفرة والابتعاد .

على انى ما كدت أحاول رفع رأسى فوق الحفرة حتى أيقنت من

استحالة الخروج .. فان نيران مدافع الماكينات كانت تلهب سطح الارض مباشرة وتغمرها بمقذوفاتها المهلكة .. ولو خرجت لكان فى هذا حتفى الذريع .

رفعت خوذتى فوق سطح الحفرة لاختبار مسقط المقذوفات .. وما كدت أفعل حتى أطاحت بها قذيفة .. ورأيت النيران تكتسح وجه الارض اكتساحا .

انتظرت هجوم رجالنا وأنا أتلظى .. ومرت الدقائق بطيئة .. ولم أجسر على التطلع الي الجسم المكوم فى الحفرة .. لكن صفير الرصاص لم ينقطع لحظة واحدة .

ثم استرعى نظرى يدى الملطخة بالدم .. وفجأة أحسست بغثيان وتقزز .. وسرعان ما تناولت شيئا من التراب وجففت به يدى .. فكستها طبقة من الطين اختفى الدم تحتها .

لم تنقطع النيران لحظة واحدة . وكانت تنصب حامية من الجانبين ولا يبعد أن زملائى قطعوا الامل من وجودى على قيد الحياة .

***

بزغ الفجر .. وما فتئت الحشرجة تصدر من الجريح .. فوضعت أصابعى فى أذنى .. لكن سرعان ما رفعتها حتى لا تغيب عنى أصوات الميدان ..

تحرك الجسم المواجه لى .. فانكمشت على نفسى ونظرت اليه كرها .. وبقيت عيناى مركزتين فيه .

كان رجلا ذا لحية مدببة .. وقد مال رأسه الى جانبه .. وتقوس أحد ساعديه .. واستقر رأسه فوقه .. وكانت يده الثانية فوق صدره ملوثة بالدم .

قلت لنفسى انه مات .. وفقد كل احساس .. وان هذه الحشرجة لا تصدر الا من جثته ..

وفجأة ارتفع الرأس فى جهد .. وازدادت الحشرجة ارتفاعا .. ثم هوى الوجه ثانية فوق الذراع .

لم يمت الرجل .. بل كان فى النزع الاخير .. فجررت نفسى الى ناحيته .. وترددت .. ثم اعتمدت على يدى وزحفت قليلا .. ثم انتظرت مرة أخرى .. ومع ان المسافة لم تكن أكثر من ثلاث

ياردات فقد بدت فى نظرى رحلة طويلة هائلة مروعة .. وأخيرا صرت بقربه .

فتح عينيه . لابد أنه أحس بى . فانه جعل يحدق الى بعينين مفعمتين بأبلغ آيات الرعب والهلع .

كانت الجثة ساكنة .. لكن رغبة الفرار التى نطقت بها عينـاه كانت من بلاغة التعبير وقوة الافصاح بحيث خيل الى انها ستحمل الجثة حملا وتفر بها .

كان الجسد هامدا .. لكن تركز فى هاتين العينين مجهود هائل لمحاولة الفرار .. والذعر من الموت .. أى منى .

تخاذلت ساقاى أمام هذا المشهد .. وهويت فوق ساعدى .. وهمست :

ــ لا .. لا ..

تبعنى الرجل بنظره .. وأحسست بأنى عاجز عن الحركة طالما يتطلع الى .

ثم انزاحت يده عن صدره قليلا .. وهــوت .. فتخلصت من تأثير عينيه .. وانحنيت فوقه .. وهززت رأسى .. وهمست :

ــ لا .. لا .. لا .

ورفعت يدى لكى يفهم انى أريد اسعافه ومساعدته .. ووضعتها فوق جبينه فأغمض عينيه .. وذهبت عنــه نوبة الفزع المميت . وفتحت ياقته ووضعت رأسه فى وضع مريح .

كان فمه مفتوحا .. وحاول أن ينطق .. لـــكن كانت شـــفتاه جافتين . ولم تكن معى زجاجتى فى هذا الوقت لكى أسقيه منها . لكن كان يوجد الماء فى قاع الحفرة فى الناحية الاخرى .

فهبطت اليها .. وأخرجت منديلى ونشرته .. وغمسته فى الماء الاصفر الآسن .. وتلقيت القطرات التى أخذت تتسرب من مسام المنديل فى راحة يدى .

تجرع قطرات الماء .. وجئت له بغيرها .. ثم فككت أزرار سترته لتضميد جرحه اذا كان ذلك ميسورا . وعلى كل فقد رأيت انه لابد من اتمام هذه المهمة ، حتى اذا عثر على الاعداء واعتقلونى رأوا انى كنت احاول اسعاف زميلهم ، فلا يعدمونى .

حاول أن يقاوم .. لكنه كان خائر القوى .. والفيت القميص متصقا بجسده ومقفلا من الخلف .. فلم يكن أمامى الا أن أمزقه .

بحثت عن الخنجر ووجدته .. وفيما كنت أهم بتمزيق القميص فتحت العينان وعادت اليهمـــا تلك النظرة المروعة المفعمة بالفزع والاستعطاف .. فاضطررت الى اغماضهما .. ورحت أهمس فى اذنه :

ـ أريد أن أساعدك أيها الزميل ..

وجعلت أردد الكلمة الاخـــيرة بالفرنسية عدة مرات حتى يفهم غرضى ويطمئن .

كان مصابا بثلاث طعنات .. فعصبتها بالضمادات التى نحملها فى الميدان .. ولما أخذ الدم ينزف تحتها أخذت أضغط على الاربطة لايقافه . فجعل يتألم ويتوجع .

لم يكن بوسعى أن أفعل أكثر من هذا .. وجلست أنتظر .

***

يا لها من ساعات بطيئة رهيبة .

بدأت الحشرجة من جديد .. وما أهـــول الموت اذا طال دور الاحتضار .

كنت واثقا من استحالة انقاذه . وقد خيل الى حينا ان استخلاصه من براثن الموت أمر ممكن . لكن ما جاء الظهر حتى تجددت الحشرجة مروعة مؤلمة .. وكم وددت فى هذا الوقت لو كان مسدسى معى .. اذن لما ترددت فى الاجهاز عليه وأراحته من هذا العذاب .. اما ان أجهز عليه بطعنة من الخنجر فهذا ما لم أقو عليه .

ثم أحسست بالجوع يمزق أحشائى ، حتى كدت أبكى من فرط الألم .. ولم أقو على احتمال تأثيره المهلك المضنى .. وبين وقت وآخر كنت أحمل شـيئا من المـاء الى المحتضر .. وأشرب شيئا بدورى .

كان هذا الرجل الذى قتلته بيدى هو أول رجل أتيح لى أن أراه عن كثب ، يعالج سكرات الموت .. والواقع ان هذا الامر كان شائع الحدوث ولا سيما فى القتال اليدوى .

لكن كل شهقة صدرت من هذا الرجل كانت تمزق قلبى ، بل كان طول احتضاره بمثابة خنجر يغمده فى صدرى ، والويل لى من أهوال التفكير وطول الانتظار .

كم كنت على استعداد لان أهب حياتى حتى يعيش ، فما أهول البقاء بجانبه ورؤيته والانصات الى نزعه وحشرجته .

ثم لفظ أنفاسه الاخيرة حوالى الساعة الثالثة مساء .

تنفست الصعداء . لكن سرعان ما اشتدت وطأة السكون حتى صارت أهول وقعا فى نفسى من سماع التوجع والشهيق . وكم وددت لو عاد الى الحياة وملأ فضـــاء الحفرة أنينا وحشرجة تتراوح بين الخفوت والارتفاع ..

لم يكن بد أن أفعل شيئا .. وان كان ما فعلت من قبيل الجنون .

أجلست الميت . وأسندت ظهره الى جدار الحفرة فى وضـع مريح ، وان كان جامدا لا يحس شـــيئا . ثم أغمضت عينيـــه العسليتين .

خيل الى ان دلائل الحياة لا تزال تبدو فى وجهه . لكن ما لبث هذا الوجه أن تغضن فجأة وكسته مسحة الموت .

لا ريب ان زوجته تفكر الآن فيه . فهى لا تعلم ما أصابه ...

وهى تنتظر رسالة منه تطمئنها على سلامته وتملأ قلبها سكينة وصبرا .

احتدمت افكارى . واختلطت الهواجس فى ذهنى .

ترى ما هى أوصــــاف زوجته ؟ . هل تشبه تلك المرأة النحيلة السمراء التى قابلتها على ضفة القناة ؟ . هل أصبحت الآن ملكا لى بعد أن أزحت زوجها من الوجود ؟ . ليت كانتوريك كان الآن بجانبى .. ليت أمى كانت الآن ترانى !

لو انى طبعت معالم الطريق فى ذاكرتى ولم أضل الطريق الى خنادقنا لعاش هذا الميت ثلاثين سنة أخرى .

ولو انه انحرف مترين الى اليسار لكان الآن جالسا فى خندقه بسطر رسالة جديدة الى زوجته .

لكن لا فائدة من هذه الاحلام .. فان هذا مصيرنا جميعا .. وقد سبق السيف العذل . ولا سبيل الى رد القضاء .

***

ثقلت وطأة الصمت .. ولم أجد بدا من الكلام حتى لا أجن .. وأخذت أقول للميت كأنما يسمعنى :

« أيها الزميل .. لم أكن أنوى أن أقتلك .. ولو وثبت الى هنا مرة ثانية فلن افعل شيئا يضرك ، اذا امسكت يدك عنى .. لـكنك كنت فكرة تجسمت فى خيالى قبل مجيئك ، وشغلت فراغ ذهنى ، وكان لابد لها أن تلقى نهايتها المحتومة .. انا لم اطعنك .. وانمـا

طعنت هذه الفكرة المخيفة التى تسلطت على .. فكرة المباغتة والمفاجأة .
لكنى أرى الآن ، وللمرة الاولى .. انك انسان مثلى .
كنت أفكر من قبل فى قنبلتك اليدوية ، وفى حربتك ، وفى بندقيتك .
أما الآن فلست أرى ألا زوجتك .. ووجهك .. وزمالتك .
اغفر لى أيها الزميل واصفح عنى . فنحن لا نفتح أعيننا الا بعد فوات الأوان .
لم لا يقال لنا انكم بؤساء مثلنا ، وان أمهاتكم يتلهفن لوعة وجزعا مثل أمهاتنا ، واننا جميعا نشترك فى الخوف من الموت ، واننا سواء فى الاحتضار والنزع ؟
اصفح عنى أيها الزميل .. كيف يمكن أن تكون عدوا لى ؟
لو اننا طرحنا هذه البنادق والكسى العسكرية ، لما كنت الا أخا لى .. مثل كات وألبرت .
خذ عشرين سنة من حياتى أيها الزميل ، وقم .
بل خذ أكثر من هذه المدة .. فلست أدرى بعد الآن كيف أنتفع بهذه الحياة » .

***

ساد الهدوء .. وخيم السكون فوق الميدان الا من طلقات البنادق التى كانت تنهال باحكام وتدقيق من جميع الانحاء .. وكان يستحيل أن أنفذ بينها .
قلت للميت بسرعة :
ــ سأكتب الى زوجتك . يجب أن تسمع القصة منى . سأقول لها كل ما قلته لك .. ولن تقاسى بعدك .. سأعولها وأساعدها .. وسأساعد أبويك أيضا وأطفالك .
كانت سترته مفتوحة .. وأخرجت مفكرته بسهولة .. لكن ترددت فى فتحها . ففيها البطاقة التى تحمل اسمه .. وطالما كنت أجهل اسمه فقد يكون ميسورا أن أنساه .. وسيطمس الزمن صورته ويمحوها من ذاكرتى .. أما اسمه فهو مسمار يندس فى راسى ويستحيل انتزاعه .. وكلما تذكرته أعاد الى ذهنى هذه المأساة وبسط صفحاتها الدامية أمام عينى .
سقطت المفكرة من يدى وفتحت .. وتناثرت منها بعض

الرسائل والصور .. فجمعتها وهممت باعادتها الى مكانهـــا ... لكن هول الموقف العصيب الذى كنت أرزح تحت وطأته زادنى يأسا وجنونا .. وأردت أن أتعجل النهاية .. وان أضاعف العذاب واضع حدا لهما معا شأن الذى يلطم يده الموجعة فى الجدار ليتخلص من ألمها .

رأيت صورة امرأة وبنت صغيرة .. وصورا أخرى لعله قد جمعها فى مناسبات متفرقة ..

ووجدت بينها بعض الرسائل .. فتناولتها وحاولت تصفحها .. غير انها كانت فى لغة فرنسية عسيرة على من كان مثلى .. لكن كل كلمة ترجمتها كانت كمدية حادة تستقر فى صدرى ..

وعجزت عن احتمال هذا العذاب . لكنى أيقنت انى لن أجسر على الكتابة الى اهل الميت كما نويت من قبل .. وبدت لى استحالة هذه الفكرة ..

نظرت ثانية الى الصور .. فتبين لى أن أصحابها ليسوا من الأغنياء ، وكل ما يمكن أن أفعل هو ان أبعث اليهم بالنقود تحت اسم مستعار اذا تيسر لى فيما بعد أن أربح مالا .

ولذلك عزيت نفسى بهذه الفكرة .. وألفيت فيها أملا خفف عنى بعض العذاب .

ان حياتى قد ارتبطت بهذا الميت .. فواجبى ان أقوم نحوه بكل شىء .. وان أعاهده على كل شىء .. عسى أن أكفر عن جريمتى .

أقسمت مخلصا ان أكرس حياتى لذكرى هذا الميت ولاسرته .. لعل الله يرحم نفسى فى الآخرة ويهيىء لى الآن مخرجا من هذه الحفرة التى توشك أن تكون قبرى .

وفتحت مفكرة الميت وقرأت اسمه .. فاذا هو « جيراردیفال ــ طابع » .

كتبت الاسم بقلم الميت فوق غلاف معى .. ثم أعدت كل شىء الى جيبه .

انى قتلت جيراردیفال الطابع .. فيجب أن أكون طابعا .. طابعا .. طابعا ..

وكدت أفقد ادراكى .

***

هدأت أفكارى قرب الاصيل . وزال خوفى . ولم يعد اسم الميت

يروعنى .. وزالت عنى نوبة الجنون .. ثم قلت له بهدوء .
ــ أيها الزميل .. أنت اليوم .. وأنا غدا .. لكنى أعدك أيها الزميل اذا خرجت سالما من هذه الفاشية أن أكافح هذا الذى نزل بنا معا .. فانتزع منك الحياة .. وانتزع منى الحياة أيضا .. أعدك أيها الزميل ألا يتكرر هذا ما حييت .

وأوشكت الشمس على المغيب .. وأجهدنى الاعياء والجوع . ثم غفوت قليلا .

فتحت عينى مرتعدا .. فقد خشيت أن يصيبنى شىء أثناء النوم . ولم أعد أفكر فى الميت .. بل استولى على فجأة تشبث بالحياة ملأ شعاب نفسى ونفى عن رأسى كل ما ساورنى من الخواطر والافكار .. ولكى أدفع عن نفسى فقط كل سوء رحت أغمغم بلهجة آلية :

سأفى بكل شىء ، سأفى بكل شىء قطعته على نفسى .

لكنى كنت أعرف الآن انى لن أفى بشىء .

وفجأة خطر لى أن زملائى قد يطلقون النار على اذا رأونى أزحف ناحيتهم .. فهم لا يعلمون انى عائد اليهم .. وقررت أن أناديهم حالما اقترب منهم حتى يعرفونى .. وان أتمدد أمام الخندق حتى يجيبوا ندائى .

ولكن أرخى الليل سدوله .. وخفت حدة انفعالى .. وانتظرت حتى أشعلت الصواريخ الاولى .. وسرعان ما زحفت من الحفرة وقد نسيت الميت . وركزت عينى فوق حفرة قريبة .. وما كادت الصواريخ تنطفىء حتى هبطت الى الحفرة .. ثم تسللت منها الى غيرها . وهكذا .

دنوت من مواقعنا .. ثم رأيت فى ضوء الصواريخ أشباحا تتحرك بين الاسلاك .. فتمددت ساكنا .

رأيت الاشباح ثانية .. وأيقنت هذه المرة حينما رأيت خوذاتهم بجلاء انهم رجالنا . وسرعان ما ناديت .. وفى الحال أجابنى صوت يردد اسمى : « بول ! . بول ! » .

ناديت مجيبا .. ورأيت كات وألبرت اللذين غادرا الخنادق مع نقالة للبحث عنى .. وقالا لى :

ــ هل جرحت .

فأجبت : لا .. لا .

هبطنا الى الخنادق .. وطلبت شيئا آكله وازدردته ازدرادا . وقدم الى موللر سيجارة .. وسردت عليهم فى بضع كلمات ما حدث لى .. ولم يجدوا فيما قلت شيئا جديدا يلفت الانظار .. فان هذه المغامرة كثيرة الحدوث .. ولم يكن فيها شذوذ عن المألوف سوى الهجوم الذى وقع ليلا .. وقرر كات أنه بقى مدة كامنا وراء خطوط الاعداء فى روسيا ليلتين قبل أن يتمكن من العودة .

لكنى لم أقص عليهم حديث الرجل الميت .

لكن ما هو الا ان جاء الصباح حتى عجزت عن كتمان هذه القصة . فأخبرت كات وألبرت بها .. فراح كلاهما يطيب خاطرى بهذه الكلمات :

ـ لا حيلة لك فيما حدث .. هل كان يمكنك أن تفعل غير هذا ؟ . انك لم تجىء الى هنا الا لهذا الفرض ..

أصفيت اليهما . وأحسست بالاطمئنان والسكينة لوجودى معهما . ورأيت انى كنت أهذى أثناء وجودى فى الحفرة .

وقال كات : أنظر هناك مثلا ..

كان بعض جنودنا قد نصبوا بنادقهم عند مدخل الخندق فوق حافة الجدار .. وأخذوا بمساعدة بعض المنظارات المكبرة يراقبون خطوط العدو .. وبين وقت وآخر كانت بنادقهم تقذف رصاصها .

تم سمعنا صرخة .. وقال قائل :

ـ هل رأيت كيف وثب فى الهواء ؟ .

وراح الجاويش أويلريخ صاحب الرصاصة القاتلة يغمغم زهوا . فقد كانت هذه رصاصته الثالثة القاضية فى هذا اليوم .. وقال كات موجها حديثه الى :

ـ ما رأيك فى هذا ؟

أومأت برأسى .. وقال البرت :

ـ لا حاجة بك الى الجزع من أجل مغامرتك ..

والواقع انى لا أكاد الآن أفهمها .. وقلت :

ـ ان تلك المغامرة قد اتخذت اتجاها خاصا لاضطرارى الى البقاء مع الميت وقتا طويلا .. وعلى كل حال فالحرب هى الحرب .

وما فتئت بندقية أويلويخ تنطلق بين وقت وآخر ، فتصيب من العدو مقتلا .

الفصل العاشر

ظفرنا بغنيمة عظيمة أفصلها فيما يلى :

فقد عهد الى ثمانية منا بحراسة قرية هجرها أصحابها بسبب القنابل التى انهالت عليها بكثرة ساحقة .

وتعين علينا بخاصة أن نحرص مخزن المؤونة الذى لم يفرغ بعد .. وكان المفروض بالطبع أن نتمون منه . ولم يكن هناك من يليق لهذه المهمة خيرا من عصابتنا المؤلفة من كات والبرت وموللر وجادن وتيرنج ومنى .

ووقع اختيارنا على قبو مشيد بالاسمنت المسلح ، له مدخل يحميه وهو جدار من الاسمنت كذلك .. وتقرر ان نتخذه بمثابة خندق أو قاعدة لنا .

وكان أول ما فعلناه أن فرشنا ارض القبو بمراتب جئنا بها من منازل القرية .. ثم تزودنا بأغطية وثيرة .. وعثرنا على سرير من الخشب اللامع جئت به مع ألبرت الى القبو بعد أن فككنا أجزاءه ثم أعدنا بناءه .

وقمت مع كات بغزوة فى المنازل .. فجمعنا اثنتى عشرة بيضة ورطلين من الزبدة الطيبة .. وفيما نحن في طوافنا سمعنا صوتا أذهلنا .. ثم رأينا خنزيرين رضيعين فى حظيرة صغيرة .. فجعل كلانا يفرك عينيه وهو لا يصدق ما يرى .. ولما تحققنا أنهما خنزيران حقيقيان حملناهما وكدنا نطير بهما طيرانا .

وكان يوجد بجانب الخندق الذى اتخذناه قاعدة لنا بيت صغير كان من قبل مسكنا للضباط .. فيه مطبخ بكامل معداته .. ولم يبق شك فى أنهاستكون وليمة حافلة .

وكان اثنان من زملائنا فى هذا الوقت قد خرجا الى الحقول لجمع بعض الخضروات .. فقد اتفقنا ألا نأكل من الاصناف المحفوظة .

وسرعان ما اشرف كات على ذبح الخنزيرين وشيهما .. وتوليت

انا صنع بعض الفطائر .. ولما تم نضج الخنزيرين وقفنا جميعا حولها كأننا حول مذبح مقدس .

وفى هذه الاثناء زارنا اثنان من رجال اللاسلكى .. فوجهنا اليهما الدعوة بسخاء .. وجلسا فى غرفة الاستقبال حيث كان يوجد بيانو .. فأخذ أحد يعزف عليه والثانى يصاحبه بالغناء .. وكان الصوت يصل الينا مؤثرا ونحن نشرف على اعداد الطعام الشهى السائغ ..

وفجأة حدث ما كاد يفسد علينا هذه الوليمة التاريخية .. فان الدخان المتصاعد من مدخنة المطبخ لفت الينا الطائرات .. فأخذت تقذفنا بقنابلها ..

كانت القنابل لحسن الحظ من النوع الخفيف الذى يحدث فتحات يسيرة ويتناثر حول الارض .. وأخذت الشظايا تتطاير ونفذ بعضها من نافذة المطبخ ..

لكن كان يستحيل أن ندع هذه الغنيمة تفلت من ايدينا .. وكنا فى هذا الوقت قد أنجزنا كل شىء تقريبا .. ولم يبق سوى اتمام الفطائر التى كنت أنضجها على النار .

ولذلك حمل الرجلان صحاف الخضروات .. وانتظرنا حتى انقطع القاء القنابل .. ثم اندفعنا الى الخندق الذى لم يكن يبعد عن المنزل سوى خمسين ياردة .. واختفينا فى داخله .

ثم تلاهما رجلان فى الفترة التالية التى تخللت القاء القنابل .. وركضا الى الخندق يحمل كلاهما اناء به أفخر انواع القهوة .

وسار بعدهما كات وكروب حاملين فخر المائدة .. أى الخنزيرين المشويين .. ولم يصبهما سوى بعض خدوش يسيرة .

ولما جاء دورى ضممت صفحة الفطائر الى صدرى .. وتسللت فى ظل الجدار .. وجعلت أركض فى خفة الغزال .. وقبيل وصولى الى الخندق انفجرت قنبلة تطايرت شظاياها حولى .. لكنى اندفعت من الفتحة وهبطت درجات سلم القبو ووصلت بسلام .

افتتحت الوليمة فى الساعة الثانية . واستمرت حتى الساعة السادسة . واخذنا نشرب القهوة حتى منتصف السابعة . وجعلنا ندخن سجائر فاخرة جئنا بها معنا من مخزن المؤونة كذلك .

ثم بدأ العشاء فى منتصف السابعة . ولما حانت الساعة العاشرة القينا بعظام الخنزيرين الى خارج الباب . وجاء دور السجائر من

جديد . وكانت هذه المرة أفخر والذ نكهة .

وفي قت متأخر سمعنا مواء هرة .. ووجدناها جالسة فى مدخل الخندق . فدعوناها للدخول وقدمنا اليها بعض الاكل . وما كدنا نفعل حتى تنبهت شهيتنا من جديد . ولما تمددنا للنوم كان كل منا لا يزال يمضغ ويزدرد .

لكن كانت ليلتنا هذه من أسود الليالى . فقد افرطنا فى أكل اللحم الدسم . ولحم الخنازير الصغيرة على الاخص يحدث مغصا واسهالا .. ولذلك كثر الخروج من الخندق . ولو زارنا أحد فى هذا الوقت لرأى اثنين او ثلاثة جالسين باستمرار فى الخارج وقد انحسرت بنطلوناتهم وراحوا يسبون ويلعنون . وأنا نفسى خرجت من الخندق تسع مرات فى هذه الليلة اللعينة .. وما وافت الساعة الرابعة صباحا حتى ضربنا رقما قياسيا واصطففنا جميعا جالسين القرفصاء خارج الخندق .

كانت المنازل المحترقة تبدو فى الليل كالمشاعل . واخذت القنابل تنفجر وتتناثر شظاياها .. وراحت سيارات التموين تشق الشارع بسرعة . وهدم جانب من مستودع المؤونة . فأخذ سائقوا سيارات التموين ينقضون على الخبز كالذئاب رغم الشظايا المتطايرة . ولم نشأ أن نتدخل حتى لا ننال ما نكره . ولم نهتم فى الواقع اذ كل شيء سيكون نصيبه التدمير التام بعد قليل . ويممنا شطر المستودع واخذنا نلتهم قطع « الشــكولاتة » بعد أن قرر كات انهــا تمنع الاسهال .

أمضينا نحو أسبوعين فى الاكل والشرب والطواف . ولم يعكر صفونا أحد . واخذت القرية تتلاشى تدريجيا تحت وابل القنابل .. فلم نهتم بشيء مادام مخزن المؤونة مصونا . ولم نكن نطمع الا فى البقاء فى هذا الفردوس الارضى حتى نهاية الحرب .

وابطرت النعمة جادن حتى أصبح يدخن السجائر حتى أنصافها .. وقرر لنا وهو شامخ بأنفه انه اعتاد ذلك منذ نعومة اظفاره . وكان كات أشدنا سعادة وابتهاجا . فكان فى الصباح يقول : « اميل .. على بالقهوة والبطارخ » ..

وراح كل منا يتعاظم ويخاطب الآخر مخاطبة السيد للخادم ويلقى اليه الأوامر والنواهى . وذات مرة مد لير قدمه الى كروب وقال له : « كروب .. أيها الوصيف .. انى أحس بوخز فى بطن قدمى .

اقبض على تلك القملة فى الحال » . فأمسك به كروب من قدمه وراح يجره فوق السلم .

وبعد مضى ثمانية أيام صدرت الينا الاوامر بالعودة . وجاء لوريان كبيران لحملنا .. فتوليت مع كروب نقل السرير الى أحدهما وفوقه المراتب والاغطية الحريرية . وحمل كل منا معه كيسا مملوءا بمختلف انواع المأكولات والسجاير . كما جئت وكروب بمقعدين وثيرين جلسنا فوقهما كأننا فى مقصورة احد المسارح .. ووضع كل منا سيجارة فاخرة بين شفتيه . وأخذنا ننظر من عل الى ما تحتنا .

وجعلنا بيننا قفصا وضعنا فيه الهرة التى جاءت معنا .. وراحت تلتهم اللحم الذى قدمناه لها وهى تموء سعيدة .

وسار بنا اللوريان أخيرا ونحن نغنى .. وتركنا خلفنا القرية وقد دمرتها القنابل عن آخرها .

عهد الينا بعد بضعة أيام باخلاء احدى القرى من سكانها . وفى طريقنا الى القرية رايناهم يفرون منها حاملين أمتعتهم وقد أطرقوا برءوسهم وظهرت على وجوههم دلائل الحزن والكمد واليأس والاستسلام .

***

كنا نسير صفا . وعللنا النفس بأن الفرنسيين لا يمكن أن يرسلوا نيرانهم على قرية لم يهجرها بعد سكانها تماما .. لكن لم تكد تمضى بضع دقائق حتى ماج الفضاء ومادت الارض وعلا الصراخ . وسقطت قنبلة فى الصف الخلفى .. وسرعان ما تفرقنا وارتمى كل منا على الارض .. ولكننى أحسست فى هذه اللحظة ببصيرتى التى طالما الهمتنى الى دنو الخطر وأنقذتنى منه تفارقنى .. وهتف هاتف فى اعماق نفسى : « أنت هالك » .. وفى اللحظة التالية شعرت بضربة كوقع السوط تلهب ساقى اليسرى .. وسمعت كروب يصرخ بجانبى .

كنا ممددين فى العراء . فصرخت :

ـ انهض يا البرت ! . اسرع !

نهض كروب مترنحا واخذ يركض بجانبى .. ووصلنا الى سياج من الاشجار كان أعلى منا . فتشبث كروب بأحد الاغصان . وأمسكته من ساقه ورفعته ، فصرخ .. وفى لحظة وثب الى الناحية الثانية .. ثم وثبت فى اثره وسقطت فى حفرة خلف السياج .

تلطخ وجه كل منا بالوحل .. لكن المكان كان صالحا للاحتجاب .. ورحنا نخوض فى الماء حتى العنق .. وكلما صفرت قنبلة حولنا غاص كلانا تحت الماء .. وقال كروب وهو يتوجع :

ـ لنخرج من هنا .. والا سقطت وغرقت ..

فسألته : أين أصبت ؟

ـ فى ركبتى كما أظن ..

ـ هل يمكنك أن تركض ؟ ..

ـ أظن ...

ـ اذن هيا بنا ..

خرجنا من الماء وانحنينا واخذنا نركض .. فتبعتنا القذائف .. وكان الطريق الذى سلكناه يؤدى الى مستودع الذخائر .. ولو واصلنا السير فيه لما بقى منا كتلة من اللحم متماسكة .. ولذلك غيرنا الاتجاه ويممنا شطر الريف.

اخذ كروب يجر نفسه .. ثم قال أخيرا :

ـ اذهب أنت .. وسأتبعك .

وارتمى فوق الارض .

أمسكته من ذراعه وجذبته قائلا :

ـ انهض يا كروب .. اذا رقدت لحظة فلن أتقدم أبدا .. أسرع .. سأسندك .

ووصلنا أخيرا الى فندق صغير .. فهوى كروب فى أرضه ورحت أعصب جرحه .. فرأيته أصيب فوق الركبة بقليل .

ثم ألقيت نظرة على نفسى .. فألفيت الدم يخضب بنطلونى وذراعى . وتولى ألبرت تضميد جراحى .. ولم يعد يقوى الآن على تحريك ساقه . وعجبنا كيف تيسر لنا أن نجتاز كل هذه المسافة .. والواقع ان الخوف وحده هو الذى قوانا .. ولو بترت أقدامنا لما كففنا عن السير ، ولتقدمنا فوق سيقاننا .

كان بوسعى أن أزحف قليلا . ولما وجدت احدى مركبات الاسعاف ناديتها فحملتنا معا . وكانت مملوءة بالجرحى . وبها جاويش من القسم الطبى بالجيش أخذ يحقننا ضد التيتانوس فى صدورنا .

وفى المستشفى سعينا للبقاء فى سريرين متجاورين . وقدم لنا حساء تافه تناولناه بشراهة وازدراء فقد الفنا الطعام الجيد . لكننا كنا نشعر بأشد الجوع ..

قلت اصديقى : سنذهب الآن الى بلدتنا .
فأجاب كروب : هذا ما ارجوه . أنى أود قبل كل شيء أن أعرف طبيعة جرحى .
تزايد الألم . وكانت الاربطة تكوينى كالنار . وأخذنا نتجرع الماء باستمرار .
سألنى كروب : ما هو بعد اصابتى فوق الركبة ؟ .
فأجبته : مقدار أربع بوصات على الاقل .
وان كانت الاصابة فى الواقع فوق الركبة نفسها .
فقال بعد قليل : انى فكرت فى الامر . اذا بترت ساقى فسأقضى على نفسى . لا يمكن أن استأنف الحياة مقعدا .
وهكذا تمددنا . واستسلم كل منا لهواجسه . وجعلنا ننتظر .

***

نقلنا فى المساء الى غرفة العمليات . فاستولى على الجزع . ورحت أفكر بسرعة فيما يجب أن أفعل . فقد كان من المعروف أن الجراحين فى المستشفى يبترون لمجرد الاشتباه .
فكرت فى كمريخ . وقررت انه مهما يحدث فلن أدعهم يخدروننى .. ولو اضطررت لمقاومتهم بالقوة ..
جاء الجراح .. ولمعت المشارط فى يديه .. وأمسك ممرضان بذراعى وطفى على ألم لا يطاق .. فتملصت من احدهما وكدت احطم نظارة الطبيب لولا انه فطن فى اللحظة المناسبة ووثب الى الخلف .. وصاح غاضبا :
ــ خذوا هذا الشقى ! .
عدت الى الهدوء .. وقلت :
ــ عفوا يا سيدى الطبيب .. سألزم السكون .. لكن لا تخدرنى .
فقبل الطبيب .. وكان شابا فى الثلاثين من عمره عليه دلائل الطيبة .
راح يعبث بمشارطه ويقلب فى الجرح حتى كدت أجن . وأخيرا اقتنص شظية من الجرح والقى بها الى .. والظاهر انه سر من هدوئى وما بذلته من جهد جبار لاحتمال الالم .. فانه راح يثبت ساقى بعناية فوق جبيرة ، وقال لى :
ــ ستنقل غدا الى بلدك .

ولما عدت الى كروب قررت له أن قطارا سيأتى فى صباح الغد كما يظهر .. وقلت :

ـ يجب أن ندبر الامر ياكروب مع جاويش القسم الطبى حتى نبقى معا فى القطار .

اتصلت بالجاويش المذكور وقدمت اليه سيجارتين من السجاير الفاخرة . فتشممهما وقال :

ـ هل معك غيرهما ؟ .

فأجبته : معى عدد لا بأس به . وكذلك مع زميلى . (وأشرت الى كروب) .. ويسرنا أن نقدمهما جميعا اليك من نافذة القطار فى صباح الغد .

فهم الجاويش ما نريد .. وتشمم السجائر مرة ثانية وقال :

ـ اتفقنا .

***

لم تذق طعم النوم هذه الليلة .. فقد توفى سبعة أشخاص فى القسم الذى كنا فيه .. وراح أحدهم ينشـــــد أنشودة فى صوت متقطع قبل أن يوافيه دور الاحتضار . وزحف آخر من فراشه الى النافذة .. وتمدد بجانبها كأنما يريد أن يلقى منها نظراته الاخيرة .

***

تمددنا فوق النقالات على افريز المحطة وانتظرنا القطـــــار نحو ساعتين . وأخذ المطر يتساقط . وكانت المحطة مكشوفة . وأغطيتنا رقيقة .

وراح الجاويش يرعانا كالأم الرؤوم .. ولمـــا قدمت له سيجارة سلفا جاء بغطاء المشمع وطوحه فوقنا نحن الاثنين .

تذكرنا فجأة السرير الفخم الذى غنمناه والمقعدين الوثيرين اللذين كنا نجلس فيهما كالوردات . وكنا قد قررنا أن نؤجرهما فيمـــا بعد بالساعة .. كل ساعة بسيجارة . كما تذكرنا كذلك أكيــــاس المؤونة والهرة .. فاكتأبنا .. ولو ان القطـــار تأخر عن القيام يوما واحدا للحق بنا كات وجاءنا بهذه التحف النادرة .. لكننا كنا فى حالة لا تدعو الى أن نعرض أنفسنا للانفعال .. ولذلك استسلمنا للأمر الواقع .

جاء القطار أخيرا . وبر الجــــــاويش بوعده ونقلنا الى مركبة واحدة . ورأينا جمعا من ممرضات الصليب الاحمر .. ووضع كروب

في الفراش الاسفل .. وأسندتني ممرضة وطلبت الى أن أدلف الى الفراش الذى يعلوه . فهتفت :
ــ رباه ! ..
فسألتني الممرضة : ماذا جرى ؟ ..
ألقيت نظرة على الفراش .. فاذا هو مكسو بغطاء ناصع البياض .. في حين كان قميصي لم يغسل منذ ستة أسابيع .. واختلطت فيه القذارة المروعة بالوحل .
قالت الأخت برقة : ألا يمكن أن تصعد الى الفراش بنفسك ؟ ..
فأجبت وقد سال العرق فوق وجهي :
ــ بل يمكنني .. لكن ارفعي غطاء الفراش أولا .
ــ ولم ؟ ..
كنت أشعر بأني كالخنزير .. فقلت في تردد :
ــ ان الغطاء سوف ..
ــ سوف يتلوث ؟ .. لا يهم .. سنغسله فيما بعد .
فقلت بانفعال وأنا أشعر بأني غير أهل لهذه المعاملة الرقيقة :
ــ لا .. لا .. لا يمكن .
فاستطردت : ما دمت أمضيت وقتا في الخنادق فليس كثيرا علينا أن نغسل غطاء لأجلك .
نظرت اليها .. فاذا هي في نضارة الشباب .. نظيفة ككل شيء حولنا ويكاد الانسان يحسب أنه في مكان هيىء خصيصا للضباط .. بل لقد أحسسنا بالغرابة في هذا الوسط .. وساورنا شيء من القلق والخوف .
على انى قلت مترددا : فقط ..
ــ ماذا ايضا ؟ ..
فهتفت أخيرا : والقمل الذى نحمله ؟ .
ضحكت الأخت وقــالت : لا بأس ان يتمتع قملك بيوم هنيء ايضا .
لم احفل بشيء بعد ذلك .. فتسللت الى الفراش وجذبت الأغطية فوقي .
وامتدت يد فوق الغطاء .. فاذا يد الجاويش .. وفي اللحظة التالية ابتعد حاملا السجائر الموعودة .
وبعد ساعة أحسسنا بالقطار يتحرك .

أخذ القطار يسير سيرا بطيئـــا .. وكان يقف ريثمـا ينقل منه الموتى .. وتكرر وقوفه كثيرا .

أصيب البرت بحمى .. ولم تكن حالتى سيئة .. وكنت أشعر بألم . لكن ضايقنى ان القمل تسرب تحت الاربطة .. وأخذ يخزنى وخزا فظيعا .. ولم أكن أستطيع ان أحك جلدى بسبب الجرح .

وصلنا الى « هريستال » فى الليلة الثالثة .. وعلمت من الأخت المرضة ان ألبرت سينقل من القطار فى المحطة التالية بسبب الحمى التى انتابته .. فسألتها :

ــ الى أين يصل القطار نهائيا ؟ .

ــ الى كولونيا ..

فقلت لألبرت بعدذهابها :

ــ لابد أن نبقى معا يا ألبرت .

وفيما كانت المرضة تطوف فى المرة التالية كتمت أنفاسى حتى احتقن وجهى وانتفخت أوداجى ونفرت عروقى .. فوقفت وسألتنى :

ــ هل تتألم ؟ ..

فأجبت وأنا أتوجع :

ــ نعم .. فجأة ..

فناولتنى ترمومترا وواصلت سيرها .. وعار على أن أكون تلميذ كات اذا لم أعرف كيف أتصرف فى هذا الموقف .

وما كانت ترمومترات الجيش لتقف عقبة فى سبيل الجنود القدامى المحنكين .. وما على الانسان الا أن يدفع الزئبق الى أعلى .. فيبقى مكانه ولا يهبط ثانية .

وضعت الترمومتر تحت ابطىء مائلا .. وأخذت أدلكه باصبعى .. ثم هززته بقوة .. فارتفع الى ١٠٠ درجة .. لكنى لم أكتف بهذا .. بل أشعلت عود ثقاب وأدنيته منه باحتراس .. فوصل الى رقم ١٠٢ درجة وبضع شرطات .

ولما عادت الأخت المرضة أخذت ألهث بشدة وأتطلع اليها بعينين خاليتين من الرشد . وجعلت أتقلب فى الفراش متململا . وغمغمت قـائلا :

ــ لا يمكن أن أحتمل أكثر من هذا ..

دونت المرضة اسمى فى رقعة من الورق . وفى المحطة التالية نقلت من القطار مع ألبرت كروب ..

وضعنا فى غرفة واحدة فى المستشفى . وامتلأت المستشفى بمن كانوا معنا فى القطـــار . وكانت حالات كثيرين منهم خطرة . ولم تفحص جروحنا فى هذا اليوم بسبب قلة عدد الاطباء . وقضينا الليلة فى ارق وقلق . ولم نذق طعم النوم الا حوالى الفجر .

وفى الصباح جاءت النقـــالات المسطحة المرفوعة على عجل من المطاط فحملتنا واحدا بعد الآخر الى غرفة العمليات لفحص الجروح وتغيير الاربطة . فقاسينا فيها الاهوال .

وكانت الغرفة التى نزلنا بها تضم ثمانية أشخاص ، اخطرهم جرحا هو بيتر ذو الشعر الأسود المجعد ، وكان مصابا فى الرئة ..

وكان منهم فرانز والختر الذى أصيب برصاصة فى ذراعه ولم تبدأ اصابته سيئة أول الأمر . لكنه اخذ ينادينا فى الليلة الثالثة . وطلب الينا أن ندق الجرس . وقرر انه أصيب بنزيف .

ضغطت على الجرس طويلا . لكن الأخت لم تحضر . فقد أرهقناها بالطلبات الكثيرة ، هذه الليلة . ولما تضايقت أغلقت الابواب خلفها وذهبت مستاءة .

انتظـرنا طـويلا . فرجانى فرانز أن أدق الجـرس مرة ثانية . ففعلت . لـكنها لم تظهر ...

فقلت له أخيرا :

ــ هل أنت واثق يا فرانز ان الدم ينزف منك ؟ ..

ــ ان الاربطة مبللة .. ألا يمكن اضاءة النور ؟ ..

لم يتيسر هذا .. فقد كان زر النور قرب الباب .. ولم يكن بيننا من يستطيع الوقوف ..

ضغطت على زر الجرس حتى شعرت بتخدر اصبعى .. واخيرا فتح الباب ..

وظهرت الأخت الممرضة تغمغم ساخطة .. وما كادت تتبين حالة فرانز حتى اهتمت أشد الاهتمام وقالت :

ــ لم لم يخطرنى أحد بالحضور ؟ ..

ــ ضغطنا طويلا على الجـــــرس .. وليس بيننا من يســتطيع المشى ..

نزف الدم من جرح فرانز بغزارة .. وتولت الأخت منع النزيف وتضميد الجرح .. ولما رأينا وجهه فى الصباح الفيناه شاحبا نحيلا فى حين كانت تبدو عليه دلائل الصحة فى الليلة الماضية .

ومنذ هذا الوقت أخذت المرضة تتردد على الغرفة كثيرا ..

***

لم يسترد فرانز واختر قواه .. وذات يوم نقل من الغرفة ولم يعد اليها .. وكان معنا نزيل قديم فى المستشفى يدعى جوزيف هاماشر ، فسر لنا ما حدث قائلا :

ـ لن نراه بعد الآن .. فقد وضعوه فى غرفة الموتى ..

سأله كروب :

ـ ماذا تعنى بفرقة الموتى ؟ ..

ـ هى غرفة صغيرة فى نهاية المستشفى .. ينقل اليها كل من يشرف على الموت ..

ـ ولكن لم يفعلون هذا ؟ ..

ـ حتى يوفروا على أنفسهم عناء العمل . لأنها قريبة من المشرحة .. وربما كانوا يفعلون هذا رحمة بنا كذلك ، حتى لا نموت من الحزن . وفوق هذا فهناك يمكنهم أن يعتنوا به عناية أفضل اذا بقى وحده .

ـ لكن ماذا يكون شعور الجريح المنقول اليها ؟ ..

فأجاب جوزيف وهو يهز كتفيه :

ـ غالبا يكون فى حالة غيبوبة وعدم اهتمام بما يدور حوله .

ـ وهل يعرف الجرحى هذه الغرفة ؟ .

ـ يعرفها كل من أمضى فى المستشفى مدة طويلة .

***

احتل فراش فرانز واختر فى مساء اليوم جريح جديد .. وما كاد يمضى يومان حتى نقل بدوره الى غرفة الموتى .. فأشار الى جوزيف اشارة ذات مغزى .

وكان أقارب الجرحى الذين يزورون المستشفى يجلسون بجانب الأسرة ويبكون .. أو يتكلمون بأصوات خافتة مؤثرة .

وجاءت ذات مرة سيدة عجوز لم تفارق الغرفة فى الليل الا بعد جهد .. وفى صباح اليوم التالى عادت فى وقت مبكر . لكنها جاءت بعد فوات الأوان .. فقد احتل السرير جريح آخر . وذهبت الى المشرحة لالقاء نظرة أخيرة على الميت .. ووهبتنا التفاح الذى حملته اليه ..

واخيرا ساءت حالة بيتر الصـــغير .. وذات يوم جاءت النقالة ووقفت بجانبه . فقال :

ـ الى أين ؟ .

ـ الى غرفة (الفيار) .

نقل بيتر الى النقالة .. لكن الاخت الممرضة ارتكبت غلطة .. فقد حملت سترته من المشجب ووضعتها فوق النقالة حتى لا تسير مرتين . وسرعان ما فهم بيتر الحقيقة . وحاول أن ينحدر من فوق النقالة قائلا :

ـ سأبقى هنا ! ..

أعيد الى النقالة .. فأخذ يصرخ منهوكا :

ـ لن اذهب الى غرفة الموتى ! ..

ـ لكن ستذهب الى غرفة (الفيار) ..

ـ اذن لماذا حملتم سترتى ؟ ..

وعجز عن الكلام بسبب رئته الجريحة .. ثم همس فى صـــوت مؤثر :

ـ سأبقى هنا ! ...

لم يجبه أحد .. وسارت به النقالة .. ولمـا وصلت الى الباب حاول أن ينهض .. فتمايل راسه .. وامتلأت عيناه بالدموع .. واخذ يهتف :

ـ سأعود ! .. سأعود ! ..

أغلق الباب .. وتأثرنا جميعا بهذا المشهد .. لكننا لم نقل شيئا .. غير ان جوزيف قال اخيرا :

ـ كثيرون قالوا هذا الكلام .. لكن من يذهب الى غرفة الموتى لا يعود منها الى الابد .

***

انتابنى اعياء شديد .. واخذت اتقيأ يومين .. وقرر لى مساعد الجراح ان عظامى لن تلتئم ..

أما البرت كروب فقد ساءت حالته .. ونقلوه من غرفتنا ثم بتروا ساقه حتى الفخذ .. ولما عاد الينا لزم الصمت .. وقرر مرة انه سيطلق النار على نفسه حالما يضع يده على مسدسه .

وفد على المستشفى جرحى جدد .. وانضم الى غرفتنا اثنان من العمى كان أحدهما موسيقيا فى ريعان الشباب .. وكانت الممرضات يحرصن على ابعاد المدى عنه أثناء اطعامه .. فقد انتزع مرة سكينا من احداهن ..

وبرغم هذه الحيطـــة حدثت حادثة .. فبينما كانت احـــدى الممرضات تطعمه ذات ليلة دعيت لشأن ما .. وتركت الشوكة فى الصحفة فوق المائدة .. وسرعان ما أخذ الموسيقى الاعمى يتحسس بيده ، وتناول الشوكة وأخذ يغرسها بـكل قواه فى قلبه .. ثم انتزع حذاءه وجعل يضرب به على مقبض الشوكة بكل شدة .

استنجدنا .. وتمكن ثلاثة رجال من انتزاع الشوكة من يديه بعد جهد جهيد .. وكانت أسنانها قد نفذت فى ملابسه وكادت تصل الى صدره .. وأخذ يسبنا طول الليل حتى حرمنا من النوم .. وفى الصباح أصيب بالتواء فى فكيه .

كانت الأسرة تخلو واحـدا بعد الآخر .. وأخـذت الايام تمر فى خوف وتوجع وأنين واحتضار .. ولم تعد غرفة الموتى تنفع لضيقها .. وكان الجرحى يموتون فى غرفتنا أثناء الليل .

وسمح لبعضنا على توالى الايام بالنهوض .. وأعطى لى عكازان أخذت أتوكأ عليهما وأخطو قليلا .. لكنى لم أستطع أن أنتفع بهمـا كثيرا ، فانى لم أكن أقوى على احتمال نظرات البرت الغريبة وهو يتطلع كلما خطوت مستندا الى العكاز .. ولذلك كنت أحيانا أهرب الى الممشى حيث يتيسر لى أن أنتقل فى شىء من الحرية .

كان الطابق الذى يلينا مخصصا لجراح البطن والعمود الفقرى والرأس وحالات البتر المزدوجة .. وفى الجناح الايمن جراح الفك ، والاختناق بالغازات ، والأنف والأذن والعنق .. وفى الايسر حالات العمى وجراح الرئة والمفاصل والأمعـاء .. وفى المستشفى يدرك الانسان لأول مرة ان قتلاه وجرحاه لا حصر لهم .

وكان كثيرون من الجرحى يوضعون وتحت أطرافهم المحطمة التى تعلق فى الفضـاء بواسـطة حوامل ، اوعية يتساقط فيهـا الدم والصديد . ثم ترفع الأوعية كل ساعتين أو ثلاث لتفريغها ..

وأطلعنى مرة سكرتير الجراح على صورة مأخوذة بأشـعة اكس لأكتاف ، وركب وعظام مختلفة فى الجسم هشمت تهشيما .

ولا يستطيع الانسان أن يدرك أن فـوق هـذه الاجسام المحطمة المهشمة وجوها آدمية لا تزال الحياة تدب فيها وتجرى مجراها .

ومع ذلك فليس هذا سوى مستشفى واحد . وهناك مثله مئات الآلاف فى كافة أنحاء المانيا . ومئات آلاف أخرى فى فرنسا وروسيا.

وما دامت كل هذه الفظائع تحدث فلا خير فى شىء . ولا فائدة من الكتابة أو الفعل أو التفكير .

كل شىء فى الحياة عبث وخداع اذا كانت حضارة آلاف السنوات لا تستطيع ان توقف سيل الدماء التى تتدفق مدرارا ، ولا أن تحول دون هذه الجروح المروعة التى تكتظ بها غرف العذاب فى مئات آلاف المستشفيات .

ان المستشفى وحـده يبين ما هى الحـرب ويصورها تصـويرا مجردا ..

***

أنا فى نضارة الشباب .. أنا فى العشرين من عمرى .. لكنى لا أعرف من الحياة غير اليأس ، والموت ، والخوف ، والاحزان .

انى أرى كيف توغر الشعوب بعضها ضد بعض ، وتتطاحن فى صمت ، وجهالة ، وغباوة ، واستسلام ، وسذاجة .

ويشاركنى فى هذا الرأى الشباب المعاصر فى وطنى وفى البلاد الأخرى فى كافة أنحاء العالم .

ان الجيل الحاضر يرى هذه الاشياء بجلاء ويلمسها معى .

ماذا يقول أسلافنا اذا وقفنا أمامهم فجأة وقدمنا اليهم حسابا عما فعلنا ؟ .

وماذا يترقبون منا اذا قدر للحرب أن تضع أوزارها ؟ .

كانت مهمتنا طوال السنين هى القتل والتذبيح .

كانت مهنتنا الأولى فى الحياة .

ان علمنا بالحياة لم يتجاوز حدود الموت .

فماذا يكون من أمر الغد ؟ . والى أى مصير نحن مسوقون ؟ .

***

تقرر بعد مضى بضعة أسابيع أن أتردد كل يوم على قسم التدليك فى المستشفى .. وتيسر لى بعد ذلك أن أسير على قدمى .

وكذلك شفى الجرح الذى تخلف بعـد بتر سـاق البرت والتأم

تماما . وتقرر أن ينقل بعد أسابيع قلائل الى حيث توضع له ساق صناعية .

واستمر ألبرت فى صمته ورزانته .. وكثيرا ما كان يكف عن حديثه فجأة ويحدق أمامه باستمرار .. ولولا وجوده معنـــا فى المستشفى لأطلق الرصاص على نفسه منذ زمن طويل .

حصلت على أجازة نقاهة .

ولم ترد أمى فى نهايتها أن تتركنى أفارقها .. وكانت منهوكة القوى شديدة الضعف وقد ساءت حالتها كثيرا عن قبل .

ثم دعيت أخيرا الى فرقتى وعدت الى ميدان القتال من جديد .

وكان موقف الوداع بينى وبين صديقى ألبرت كروب مؤلما .. لكن سرعان ما يألف الانسان هذه المواقف فى الجيش .

الفصل الحادى عشر

لم نعد نحصى الاسابيع كما كنا نفعل من قبل .

عدت الى الميدان فى الشتاء .. وحينما كانت القنابل تنفجر كان تناثر قطع الجليد أوقع من تطاير الشظايا .

أما الآن فقد اكتست الاشجار بثوبها الاخضر ثانية .. وكانت أيامنا تتعاقب بين الثكنات وميدان القتال ، حتى ألفنا هذا النمط من الحياة .

وكانت أفكارنا تتغير باختلاف الايام .. فهى فى أيام الراحة طيبة محببة .. وتحت وابل النيران ميتة خامدة .

كانت حياتنا بعيدة عن العالم .. وانطمست صفحاتنا الماضية وأيامنا الخالية .. وذهب عنا ما كنا نعرفه من التهذيب والثقافة . واستحلنا أناسا نعيش بالغـــريزة ونفنى فى حدود اشباع المطالب الفطرية الدنيا .

لم نغنم من أيام الميدان سوى روابط الاخوة والزمالة التى نشأت بين أناس يهددهم الموت فى كل دقيقة . اناس ينتهبون الســـاعات لاقتناص ما يستطيعون من اللذائذ العارضة قبل أن ينشب الموت فيهم أنيابه .

وفى هذا تفسير حالة جادن مثلا الذى كان يلتهم وجبته فى سرعة جنونية قبل الالتحام فى معركة قريبة ، لانه لا يدرى أن كان يعيش بعد المعركة أويهنأ بطعام .

***

ثم توفى موللر . فقد أصيب برصاصة فى امعائه . ولم يعش سوى نصف ساعة كان فى اثنائها غائبا عن رشده ، يعانى أبلغ الآلام .

وقبل أن يلفظ النفس الاخير سلمنى مفكرته . ومنحنى حذاءه . وهو نفس الحذاء الذى ورثه عن كمريخ . وقـد لبسته لأنه طابقنى تماما . ووعدت كات أن يكون من نصيبه بعد موتى .

وأتيح لنا ان ندفن موللر . لكن كان من المرجح الا يبقى تحت التراب طويلا . فقد كانت خطوطنا تنكمش وتتراجع تدريجيـا .. ذلك أن الامدادات الانجليزية والامريكية وفدت على الميدان بكثرة . وكانت المؤن والذخائر من الوفرة عندهم بما لا يقاس عندنا .

اما نحن فقد انتابنا الهزال وانهكنا الجوع . وكانت أغذيتنا رديئة مختلطة بمواد كثيرة تصيبنا بالامراض .

كان أصحاب المصانع يثرون فى المانيا . أما نحن فان الدوسنطاريا كانت تفتك بامعائنا ، والمراحيض تكتظ بنا ..

وكان يجدر بمواطنينا فى ديارهم أن يروا وجوهنا الشاحبة الهزيلة وأجسامنا المقوسة ونظراتنا اليائسة .

ثم نفدت الذخائر فى صفوفنا ، حتى لم يبق للمدفعيـة سوى قذائف معدودة كانت تنطلق مهتزة مترددة وكأنها تريد أن ترتد علينا .

وكانت فرقتنا الجديدة القادمة الى الميدان لامدادنا مؤلفة من غلمان هزال جوعا ، منهوكين تعبا ، لا يقوون على حمل العتـاد ، ولا يعرفون الا أن يموتوا .

وكانوا يموتون حقا بالآلاف .

لم يكونوا يفقهون فى فنون الحرب شيئا . بل كانوا يتقدمون ببساطة ويتركون أنفسهم امام الموت يحصدهم حصدا . حتى لقد قال كات يوما :

— ستخلو المانيا من السكان عن قريب .

كانت امامنا القنـابل . ونيران المدافع . والغازات الخانقة . والدبابات تمزقنا وتحصد أرواحنا حصدا .

وكانت تفشو بيننا الدوسنطاريا والانفلونزا والتيفود .. فتفتك بنا وتسلمنا الى الموت شيئا فشيئا ..

كنا بين اهوال الخنادق ، وارزاء المستشفيات .. ولا مهرب لنا من أيهما .

تحطمت خنادقنا وتمزقت .. وانقسمنا شراذم متفرقة تدير رحى القتال فى حفر الخنادق والمنخفضات .

وفيما كنا نحتل يوما حفرة ومعنا قائد فرقتنا برتنك الباسل ، حاصرنا الاعداء .. ووصلت الى انوفنا سحب البارود مختلطة برائحة البترول .. ثم رأينا اثنين من جنودهم حاملين قاذفات اللهب . وكان

أحدهما يحمل الخزان فوق ظهره ، والثانى ممسكا بيديه الخرطوم الذى تندلع منه ألسنة النار . ورأينا أنهما اذا وصلا الينا قضى علينا بالهلاك اذ كان التراجع مستحيلا .

سلطنا نارنا على الاعداء .. لكنهم أخذوا يقتربون منا .. وساء موقفنا .. ولما رأى برتنك اننا عاجزون عن اصابة أحد الجنديين لانشغالنا بالاحتماء من النيران الحادة التى كانت مسلطة علينا ، تناول بندقيته ، وزحف من الحفرة ، وتمدد فوق سطح الارض معتمدا على مرفقيه ، وسدد البندقية .

أطلق النار .. وفى نفس اللحظة نالته رصاصة منهم . على انه بقى فى مكانه وسدد البندقية وأطلقها ثانية . وقال على الفور : « بديع » .. ثم عاد الى الحفرة زحفا ..

أصابت رصاصة برتنك الجندى الخلفى حامل الخزان .. فسقط .. وانزلق الخرطوم من يد الجندى الثانى .. فانبعثت النار فى جميع النواحى .. وقضت عليه حرقا .

أصيب برتنك بجرح فى صدره .. وبعد قليل لطمته شظية فى عنقه فقضت عليه .

وكانت الشظية من القوة بحيث شقت جنب لير .. فاعتمد على ساعده وأخذ الدم ينزف منه بسرعة وغزارة .. ولم يستطع احد منا أن يتقدم لمساعدته .. وما كادت تمضى بضع دقائق حتى قضى نحبه .

هل كان يجديه الآن انه كان فى المدرسة حاسبا ماهرا ؟ ..

***

مرت الشهور تباعا .. وكان صيف سنة ١٩١٨ من أفظع العهود وادماها .. وفهم كل من كان فى ميدان القتال اننا خاسرون الحرب لا محالة .

اخذنا نتقهقر ونتخلى عن مواقعنا .. وتبين انه يستحيل علينا الآن أن نعاود الهجوم من جديد هذه الحملة القوية التى اكتسحتنا ولم يبق لنا رجال ولا عتاد .

لكن الحرب استمرت دائرة .. واستمر الموت يحصد النفوس .

وكثرت الطائرات حولنا . وكان رجالها من الاعتداد بالنفس بحيث راحوا يطاردون الافراد ويصيدونهم كالارانب .

كانت كل طائرة ألمانية واحدة تقابلهـــا على الاقل خمس طائرات انجليزية وأمريكية .

وكان كل جندى ألمانى جائع مهدم يقابله خمسة من جنود الاعداء صحاح الأجسام .. منتعشى القوة .

كان كل رغيف من خبز الجيش الألمانى يقابله عنــدهم نحو خمسين علبة من اللحم الجيد المحفوظ .

نحن لم نهزم .. فاننا كجنود أفضل وأوفر دربة وخبرة ..

لكننا سحقنا وارتددنا ازاء قوى خارقة جارفة .

كنا فى الشتاء محصورين فى الخنـــــادق .. غارقين فى المياه والوحل .. وكل شىء حولنـــا سائل ذائب .. والارض كتلة موحلة تشقها خيوط الدماء .. ونحن جميعا نهبط فيها رويدا ما بين ميت وجريح ومتشبث بالحياة ..

كانت أجسادنا وأيدينا طينا ووحلا ، ولم نكن ندرى ان كنا أحياء أو أمواتا .

فلما كنا فى أواخر أيام الصيف القائظ سقط كات ذات يوم وهو يحاول احضار الطعام الى الحفرة التى نزلنا فيها وحدنا .

أصيب فى الساق اصابة حطمت العظم .. فضمدت جرحه .. وقال وهو يتوجع :

ــ اخيرا .. فى آخر وقت ..

فقد ذاعت فى هذه الايام اشاعات عن عقد هدنة ..

جعلت أواسيه قائلا :

ــ من يدرى الى متى تستمر هذه المجزرة ! .. اما الآن فقــد نجوت بهذا الجرح .

أخذ الدم ينزف من الجرح بغزارة .. ولم يكن ممكنا ان اتركه وحده وأذهب للبحث عن نقالة .. فضلا عن انى لم أكن أعرف مقر النقالات فى الجهةالتى كنا فيها .

لم يكن كات ثقيلا .. ولذلك حملته فوق ظهرى وقصدت به الى المستشفى ..

استرحنا مرتين .. وكان كات يتألم الما شديدا أثناء الطريق .. ولم نتحدث الا قليلا .. وفتحت سترتى واخذت اتنفس بصعوبة .. وسال العرق فوق وجهى ونفرت عروقى بتأثير الجهد المضنى .. على

انى اخذت استحثه لمواصلة التقدم .. فقد كان المكان حافلا بالخطر .
ورفعته عن الارض .. فوقف معتمدا على ساقه السليمة واستند الى شجرة .. فتناولت الساق الجريحة باحتراس .. ثم وثب قليلا وحملت ساقه الثانية .
كان التقدم شاقا مضنيا .. فقد كانت القنابل تنفجر بين وقت وآخر .. ورحت أتقدم بأقصى سرعة ممكنة .. اذ كان الدم ينزف منه بغزارة .. ولم يكن يتيسر لنا أن نحتمى تماما من المتفجرات .. اذ كان الخطر يعود قبل أن نلجأ الى مكان الاحتماء .
واخيرا هبطنا الى حفرة صغيرة وأنتظرنا انتهاء الغارة .. وقدمت الى كات قليلا من الشاى الذى كنت أحمله فى زجاجة معى .. ودخن كلانا سيجارة .. وقلت له باكتئاب :
ـ سنفترق أخيرا يا كات .
صمت .. وجعل ينظر الى ..
قلت له : هل تتذكر يا كات كيف خطفنا الأوزة وذبحناها . وكيف حملتنى تحت وابل النيران حينما كنت متطوعا حديثا وجرحت للمرة الاولى ؟ .. انى بكيت فى ذلك الوقت يا كات .. وقد كادت الآن الآن تنقضى ثلاثة أعوام منذ ذلك الحين .
اومأ برأسه ..
كان ألم الوحشة القاتل يبدو أمامى .. فمتى ذهب كات عنى لن يبقى لى صديق .
قلت له : كات .. لابد أن يرى أحدنا الآخر مهما حدث .. اذا حدثت الهدنة قبل عودتك الى هنا ...
فقال بمرارة :
ـ هل تظن انى سأصلح للميدان بعد بهذه الساق ؟ .
ـ ستتحسن حالتك مع الراحة .. ان المفصل سليم .. وستعود كما كنت .
فقال : اعطنى سيجارة ثانية .
ـ ربما تيسر لنا فيما بعد أن نقوم ببعض الاعمال معا .
كنت فى ابلغ حالات التعاسة والشقاء .. كنت لا أصدق انى قد لا ارى كات ثانية ، وهو صديقى الحميم الذى اعرفه خيرا مما اعرف احدا سواه فى العالم ، والذى شاطرته هذه السنوات الحافلة .
استطردت :

ـ مهما يكن يا كات ، فاعطنى عنوانك فى بلدك .. وهذا هو عنوانى .. سأكتب لك .

كتبت عنوانه فى مفكرتى .. وشعرت فى هذه الليلة باليأس والعزلة ، وان كان لم يزل جالسا الى جانبى ، حتى لقد خطر لى أن أطلق الرصاص على ساقى ، لكى يتسنى لى ان اذهب معه .

وفجأة صدرت من حلقه حشرجة وامتقع لونه . وقال متعلثما :

ـ لنستأنف السير .

وثبت .. وحملته .. ورحت اركض به ركضا يسيرا حتى لا اسبب له الما فى ساقه .

جف حلقى .. وتراقص كل شيء امام عينى مشوبا بالحمرة والسواد مع انى تحاملت على نفسى ، حتى وصلت اخيرا الى المستشفى .

هويت على ركبتى .. على انه كان لا يزال بى بقية من قوة جعلتنى أسقط على الجانب الذى توجد فيه ساق كات السليمة .

وبعد بضع دقائق انتصبت ثانية . وكانت ساقاى ويداى ترتعد .. وتناولت زجاجة الماء بجهد شديد . وراحت شفتاى ترتعشان وأنا أرشف بضع قطرات . لكنى ابتسمت . فقد أنقذت كات ..

تيسر لى بعد لحظات أن أميز الاصوات المختلطة التى كانت ترن فى أذنى . وسمعت ممرضا يقول :

ـ كان يمكنك ان توفر على نفسك هذا العناء .

نظرت اليه دون أن أفهم . فأشار الى كات وقال :

ـ هو ميت كالجماد .

لم أفهم كلامه .. وقلت :

ـ انه أصيب فى ساقة ..

وقف الممرض جامدا فى مكانه .. وقال :

ـ وهنا أيضا ..

تلفت حولى .. كانت سحابة تغشى عينى .. وسال العرق فوق جهى من جديد .. وغمر جفنى .. فجففته ونظرت الى كات .. ءاذا هو ممدد ساكنا .. فقلت بسرعة :

ـ اغمى عليه ..

فقال الممرض :

ـ بل هو ميت .. أنا خبير بهذه الاحوال .. وعلى استعداد المراهنة ..

هززت رأسى . وقلت :

ـ لا يمكن .. منذعشر دقائق فقط كنت أتحدث معه .. هو مغمى عليه ..

كانت يدا كات دافئتين .. وفيما أنا أرفع رأسه لتدليك صدغيه احسست بشيء لزج فى يدى . فجذبتهما . واذا همـا ملوثتان بالدم ..

قال الممرض :

ـ هل رأيت ؟

أصيب كات بشظية دقيقة فى رأسه أثناء الطريق دون أن افطن الى ذلك .. اذ رأيت ثقبا صغيرا فى الرأس .. لكنه كان كافيا .. ومات كات .

نهضت متباطئا .

قال لى الجاويش :

ـ هل تحب أن تحمل أدواته معك ؟

أومأت برأسى . فناولنى الأدوات .

تجير الممرض .. وقال :

ـ هل أنتما أقارب ؟

ـ لا .. لسنا أقارب .. لا .. لسنا أقارب .

هل كنت أمشى ؟ . هل بقيت لى قدمان ؟ . كل ما اعرفه انى رفعت عينى .. ودرت بهما فى المـكان .. فأحسست بـكل شيء يدور حولى .. والارض تميد تحتى .

وبعد ذلك لم اعد اعى شيئا .

الفصل الثانى عشر

جاء الخريف .. ولم يتخلف من الجنود القـــدماء الا النزر اليسير . وبقيت وحدى من بين الزملاء السبعة الذين انضموا معى من الفصل .

كان حديث السلم والهدنة على كل لسان . وانتظر الجميع .

لو كان هذا الحديث مجرد استهواء وتخدير للأعصاب مرة اخرى فستقوم الثورة .. وينتفض الجميع .

كان الامل جياشا .. ولا يمكن انتزاعه ثانية دون أن يحدث رد فعل شنيع .

اذا لم يكن السلم .. فستكون الثورة .

تسربت الى رئتى بعض الفازات .. ومنحت أسبوعين للراحة .

وفى الحديقة الصغيرة جلست طوال النهار تحت أشعة الشمس.

كنت أعتقد الآن كغيرى ان الهدنة على الأبواب .. وعند ذلك نذهب الى مواطننا .

جمدت افكارى ولم تتقدم انملة .

فى هذا الوقت كان كل ما يساورنى ويغمرنى هو الاحساسات الفياضة ، احساسات التعطش الى الحياة ، والتلهف الى البيت ، والحنين الى الأهل ، ونشوة النجاة .

لكن بلا هدف ولا غاية .

لو اننا عدنا الى الوطن فى سنة ١٩١٩ لأطلقنا ثورة جائحة لهول ما قاسينا وكابدنا .

أما اذا عـدنا الآن فسنعود منهوكين ، محطمين ، محترقين ، مزعزعين ، ضائعى الامل .

ولن يفهمنا الناس .. فان الجيل الذى سبقنا ، رغم انه أمضى معنا هذه السنوات فى الميدان ،لا يزال يظفر بالبيت وبالمهنة ، ولن يلبث الآن أن يستأنف المهنة القديمة ، وينسى الحرب .

كما ان الجيل الذى نشأ فى اعقابنا سيكون غريبا عنا ويقصينا من طريقه .

سنكون بضاعة كاسدة لا غناء فيها ولا طائل تحتها ، ستهرم ، سيندمج قليلون منا فى الحياة ، وسيمتثل آخرون لحكم الايام ، أما السواد الاعظم فسيذهب فريسة للحيرة والاضطراب .

ستتعاقب الاعوام .. وفى النهاية نتهدم ويتقوض بنياننا .

لكن ربما كانت هذه الخواطر لا تعـدو ان تكون من تأثير الكآبة والجزع ، ولا تلبث ان تتبخر وتتبدد كالغبار اذا وقفت ثانية بين الاشجار واصغيت الى حفيف اوراقها .

لا يمكن أن يكون الشباب الزاخر بالحياة ، الجياش بالآمال قـد تلاشى تحت غمرة القذائف والمدمرات .

لا يمكن ان تكون أحلام المستقبل وبسمات الامل قد توارت فى طيات اليأس والقنوط .

ها هى ذى الأشجار فارعة زاهية ، وأزهارها مشرقة نضرة ، وثمارها يانعة دانية ، واشاعات السلام تتردد فى الثكنات وعلى كل لسان .

نهضت من مكانى .

استعدت هدوئى . لتتعاقب الشهور والاعوام . فلن تنـال منى منـالا ..

انى وحيد .. شريد .. ضائع الأمل .. لكننى قدير على مواجهة الأيام بلا خوف ولا وجل .

ان الحياة التى مرت بى كل هذه السنوات لا تزال تجيش فى صدرى ، ولست أدرى ان كنت قد أخمدت ضرامهـا واستنفدت نورها .. لكن ما دامت تتردد بين جنبى ، فانها ستشق طريقهـا الى الأمام بالارادة الجديدة التى تولدت فى نفسى .

الخاتمة

سقط بطل هــذه المأســاة فى اكتوبر سنة ١٩١٨ .. فى يوم شمل هدوءه وسكونه نواحى الميدان جميعا ، حتى لا يذكر عنه فى التقرير الحربى غير هذه الكلمات « كل شىء هادىء فى الميدان الغربى » .

سقط على وجهــه . واســتلقى على الأرض كأنه مســتغرق فى النوم ..

ولو أداره انسان ونظر اليه ، لرأى أنه لم يتعذب طويلا .

كان هادىء التقاطيع ، منبسط أسارير الوجــه ، كأنما سره ان جاءت النهاية .

« تمت »

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القـــــومية ٤١٨٨/٨١
الترقيم الدولى : ISBN ٩٧٧ – ٧٣٥٣ – ٠٠ – ٦

هـذه الروايـة

ولد الكاتب الالمانى اريك مارياريمارك فى وستفاليا عام ١٨٩٨ ، وبعد اشتراكه فى الحرب العالمية الأولى أصبح من اشد الدعاة ضد الحرب حتى انه هاجر الى سويسرا وألف هذه الرواية (١٩٢٩) التى اكسبته شهرة عالمية ، ثم نزح الى الولايات المتحدة حيث منح الجنسية الامريكية . ومن رواياته الاخرى (طريق العودة) و ((الرفاق الثلاثة)) و ((الحطام الطافى)) .

ورواية ((كل شىء هادىء فى الميدان الغربى)) انسانية مؤثرة حافلة بالاحداث الجسام والمواقف التى تهز المشاعر ، فيها المؤسى الذى يثير الاشجان والمضحك الذى يخفف من اللوعة والتفجع . وقد بلغ من قيمة الرواية انها ترجمت الى كافة اللغات العالمية وأخرجتها السينما فى فيلم مثير نال شهرة مدوية طبقت الافاق مما خلدها فى سلك الروائع التى يعتز بها الادب فى كل مكان وزمان ، فضلا عن اشتمالها على تلك التحليلات الصادقة التى تتناول واقع الحياة المعاصرة وتجس كيان المجتمع الانسانى افرادا وشعوبا فى هذا العصر الذى بلغت فيه الحضارة ذروة سامية ولكن شبح الحروب المدمرة يهدد وجود البشرية كلها فى الصميم ، مالم يتضافر المجتمع الانسانى كله للعمل على نبـذ الحرب والسعى الحثيث الى تعزيز دعائم السلام وصولا الى الرفاهية المنشودة من الجميع